شرح كتاب

الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري

تقديم

أناهيد بنت عبد السميري

غفر الله لها ولوالديها

١٤٣٦ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّوجلَّ-، فما ظهرلكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهرلكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفرالله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الثاني

اللقاء السادس ٣
مقدمة الكتاب ٣
تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيه ٣
اللقاء السابع ٣١
تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيه ٣١
اللقاء الثامن ٦٠
تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيه ٦٠
اللقاء التاسع ٩٣
مراجعة الأبواب السابقة ٩٣
بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ٩٣
اللقاء العاشر ١٢١
تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ١٢١

اللقاء السادس

مقدمة الكتاب

تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، وهو -سبحانه وتعالى- يستحق الحمد فهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، وهو -سبحانه وتعالى- كامل الصفات يستحق الثناء، والعبد يرى آثار كمال صفاته في كل حال من أحواله، لو كان صادقًا في التأمل لأحواله؛ ولذا كلَّما ازدادت معرفة العبد بربه، كلَّما زاد تعظيمًا له وتعظيمًا لشعائره وتعظيمًا لكتابه وتعظيمًا لسنّة نبيه -صلَّى الله عليه وسلّم-.

ومن هذا التعظيم: الإقبال على القرآن والسنّة، والاستغناء بهما.

وقد مر معنا كثيرًا ولا زلنا نستفتح كل لقاء بنفس الأمر وهو: أن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- قال: «ليس منَّا مَن لم يتغَنَّ بالقرآنِ»[1].

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

قال البخاري (يتغنى) يستغني به عن غيره، فمن كان مؤمنًا معظمًا لله -عزَّ وجلَّ-، ما أن يسمع بأن هذا هو كلام الله، إلا ويُعظّمه، قال تعالى: ﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١]، فهذا كلام الله وليس كلام غيره، فمن علم هذا، عظّم كلام الله، وعظم كلام رسوله -صلَّى الله عليه وسلّم-، وعلم يقينًا أن الرب الكريم الرحمن الرحيم الملك القدوس، لا يمكن أن ينزل دينا ويضيّعه.

فإذا أُخبر أن هذا الكتاب محفوظٌ فيكون القرآن محفوظًا وما يبينه محفوظًا. فإن الله -عزَّ وجلَّ- نزّل القرآن على نبيّه وبيّنه وفسّره ووضّحه؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ثم وعده وعود، قال له: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٣]، فالله بيّن لرسوله القرآن، فتكلم الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم- ببيان القرآن فكانت السنّة، فلا يمكن أن نعتقد أن الله حفظ القرآن ولم يحفظ بيانه. فإذا اعتقدنا أن الله هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، فلا يمكن أن يخبرنا أنه حفظ

---

(١) الأحقاف: ١-٢.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) القيامة: ١٦-١٩.

القرآن ثم نعتقد أن السنّة تضيع! لأن السنّة بالنسبة للقرآن مُبيِّنة مُوضِّحة. فالله علم رسوله القرآن وأيضًا وعده بالبيان، نهاه أن يحرك لسانه ويتعجل في استقبال القرآن ووعده بوعود، منها بيانه. ما هو بيان القرآن؟ إنما هو سنّة رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم-. فالله علم رسوله القرآن لفظه، وعلمه معناه، والنبي -صلَّى الله عليه وسلّم- نقل لنا القرآن لفظًا وعلمنا المعاني في سنّة الرسول الكريم.

فمن عظّم الرب الكريم، واعتقد أنه -سبحانه وتعالى- حينما يعد وعدًا لا يخلفه، وقد وعد في هذا الدين بأن يحفظه، ويحفظ الكتاب، يحفظ الذكر، يحفظ كل شيء يذكّرك به، يحفظ كل شيء يدلّك على صراطه، وكما مر معنا في أوائل كتاب الاعتصام قول النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- : «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» فقد أوتي القرآن جوامع الكلم وأتت السنّة مبيّنة بجوامع الكلم أيضًا لما هو موجود في القرآن.

فنحن نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا، ونبالغ في هذا الحمد، ونزيد في هذا الحمد؛ والسبب: أن من ذاق التّيه والضياع والضلال، عرف أنه إذا لم يكن له ركنٌ شديدٌ وإذا لم يكن له حبلٌ ممدودٌ من السماء يتمسّك به، فلا بد أن يتوب. من رأى التائهين أو ذاق ما معنى التّيه، ثم تعرف على الدين، عرف أن الله قد مدّ حبلًا إلى الخلق، فإذا تمسّكوا به نجوا. ما هو هذا الحبل؟ كتاب الله وسنّة رسوله -صلَّى الله عليه وسلّم-؛ ولذا من

الضروريات اليوم: أن نرجع فنعظّم هذا الكتاب وهذه السنّة، ونعتصم بهما، ونولّي وجوهنا شطرهما، ونبتعد تمامًا عن غيرهما.

لماذا اليوم خصوصًا؟ لأن هذه الأيام التطرف من كل جهة، تسمع عمّن تطرفوا في الدين فخرجوا إلى شأن الخوارج، أو تطرفوا في البعد عن الدين فخرجوا إلى شأن الإلحاد. هذا كله له سبب واحد: أن القوم لما مُدّ لهم بحبل الإيمان وحبل القرآن، كان تمسكهم به ضعيفًا، جيل الآباء كان تمسكهم بالحبل ضعيفًا، ثم جيل الأبناء ما تمسكوا كما ينبغي! فماذا حصل؟ مع أقل شبهة، مع أقل فتنة، تنفلت أيديهم ويقعون في هذا البحر اللجّيّ من الشبهات؛ فتجد أسماء مسلمين ثم يكتبون ما يكتبه الكافر -والعياذ بالله- في التعدي على الذات الإلهية والاستهزاء بالدين! إلى آخر ما انزعجنا كثيرًا به! فقد وصلوا لمحادة الله ورسوله، وأعظم الفِرية اليوم أنهم في حال المحادة -يعني وهم يحادون الله ورسوله- يستشهدون بكلام الله ورسوله! يأتون إلى كلام الله ورسوله ويجعلونه شاهدًا على شبههم، فيطعنون في كتاب الله ببعضه البعض! فداخل كل هذه الأمواج لا يوجد حلّ غير الإقبال على الدين، لسنا بحاجة إلى أي شيء غير الكتاب والسنّة، ومطلوب منك أن تُقبل عليهما، ما تحتاج أي مادة تكميلية أبدًا معهما. لكن الناس كلهم وهم في بحر لجّيّ يقولون: "نحن نتابع الكتاب

والسنّة"! الجواب: كما ذكر البخاري في الباب الثاني قال: (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ).

إذًا كيف ستفهم الكتاب والسنّة؟ تفهمهما على منهج النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-؛ ولذا أورد كلامًا لمجاهد حول قوله تعالى:﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قَالَ: "أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا".

يعني نحن لسنا تائهين، هناك أئمة قبلنا وعلينا أن نضعهم أمام أعيننا، ثم الذين ورائنا ينظرون إلينا ونحن ننظر لمن قبلنا، فيسير الناس في هذه القافلة في طريق واحد لا يتشتتون، وتصوروا هذه المسألة جيدًا وأنتم تطوفون في الحرم، تقابلون في الطواف مقام إبراهيم -عليه السلام-، يعني أنت مرتبط في هذا الدين بالأنبياء، لست مقطوعًا، لست مبتورًا، إنما مرتبط في هذا الدين بإبراهيم الحنيف، بالأنبياء والمرسلين؛ ولذا النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- لما أخبر عن المسجد الذي في مِنى قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى مُوسَى عليه السَّلامُ هابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ، وله جُؤارٌ إِلى اللهِ بالتَّلْبِيَةِ، ثُمَّ أتَى علَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى، فقالَ: أيُّ ثَنِيَّةٍ هذِه؟ قالوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى، قالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلامُ علَى ناقَةٍ حَمْراءَ جَعْدَةٍ عليه جُبَّةٌ مِن صُوفٍ، خِطامُ ناقَتِهِ خُلْبَةٌ وهو يُلَبِّي»[1].

(١) أخرجه مسلم (١٦٦).

معنى ذلك أن هذا الدين متصلٌ بالأوائل، نحن في التحيات نقول: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم" فنحن لسنا منقطعين لا عن الأنبياء قبلنا ولا عن الصحابة الكرام ومَن تبعهم بإحسان. فلا يوجد مجال للاختراع! أنت لا بد أن تمشي في نفس الطريق، تنظر للنصوص كما فهمها أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، وكما فهمها السلف من بعدهم، فتسير على الطريق المستقيم؛ ولذا لا بد أن نفهم أن هناك من يجعل الكتاب السنّة رأسًا ويفهمهما على فهم السلف، وهناك من يستورد من الشرق والغرب فهومًا وحِكمًا -كما يعبرون- وطرقًا لإصلاح النفس ثم يأتون إلى كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ويلصقونها في كلام هذا وكلام هذا!

والطريق الصحيح لإصلاح النفس وإصلاح المجتمع وإصلاح الأفراد وإصلاح ظاهرة الطلاق وإصلاح ظاهرة الاقتصاد: لا نسمع ولا نرى إلا ما جاء في الكتاب والسنّة، «ليس منَّا مَن لم يتغَنَّ بالقرآنِ»، يعني: يستغني بهما عن غيرهما. أما أن تأتي بأفكارك من الشرق والغرب ثم تستشهد بما جاء في كتاب الله! لسنا بحاجة لذلك، وأضرب مثالًا لتتصوروا:

حينما نأتي في أي مسألة تتصل بآداب التعامل مع الناس، نحن لسنا بحاجة أن نقول: "قال الفيلسوف..."، بل يكفيك أن تقول: "قال الله، قال رسوله" وإن قيل: "الحكمة ضالة المؤمن" نقول: "لكن المؤمن ما ضلت

عنه الحكمة أصلًا"! ما ضاعت عنا الحكمة لنبحث عنها! لكن هناك مشكلتين أساسيتين، سببتا هذا الأمر:

المشكلة الأولى: الهزيمة النفسية، مهزومون، نرى الشرق والغرب ونمدح فيهم ونبقى في مكاننا مهزومين، ما نعتز بالدين، والذي أنزل الدين اسمه العزيز ﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وهذه المشكلة ربما أحد أسبابها المشكلة الثانية.

المشكلة الثانية: الكسل، يعني بمجرد أن تظهر ظاهرة في المجتمع ونريد أن نحلها، نبحث عن أحد يعطينا حلًا جائزًا. مثلًا ظهرت ظاهرة الطلاق، يقول شخص: "نبحث في الشرق والغرب ماذا فعلوا" بدلًا من أن ينكب على كتاب الله، ويقول: "ماذا قيل في سورة اسمها سورة الطلاق؟" أو مثلًا تظهر ظاهرة الخوف من الوهميات، من الخرافات، وهي ظاهرة موجودة، أو يخافون من الجن وغيره، فيقوم ليبحث عند الشرق والغرب، ماذا يجعل الناس ما يخافون! مع أن عندك في كتاب الله سورة اسمها سورة الجن، مع أنه يوجد في كتاب الله الخبر عن صفاته التي تسبب للناس الهدوء والطمأنينة والسكينة وعدم الخوف. فيكسل ويبحث عن البحث ويأخذ أي قالب جاهز ويبني عليه!

الشاهد: يجب أن نفكر في أهمية الاعتصام، لا بد أن نعتصم وإلّا يزداد الأمر غرقًا حتى تبقى الأسماء والصور إسلامية، والداخل فارغ

تمامًا من الإسلام، وهذه المسألة أصحابها يصلون ويصومون ويشهدون ويحضرون مجالس الذكر أيضًا! واسمهم في القرآن: منافقون! فيصير هؤلاء من الخارج صورتهم إسلامية وأسماؤهم مسلمة، ومن الداخل فارغين! وقد ضرب الله لهم مثلًا في القرآن، في سورة البقرة، ثم تخيل أن نصف السور المدنية تتكلم عن النفاق، معنى ذلك أنه أمر عظيم، ويجب أن نكون خائفين، من أن نكون معتمرين، مصلين، صائمين، ومن داخلنا الله أعلم بنا في يقيننا! فنسأل الله اليقين!

نحن نتكلم عمّا عمّ وطمّ في العالم الإسلامي، صورة من الخارج وأسماء إسلامية واستشهاد بنصوص قرآنية وكلام النبي، لكن اليقين في الداخل كأنه مهزوز، ربما غير موجود لأن اليقين ما يأتي إلا من علم اليقين، ثم عين اليقين ثم حق اليقين.

اليقين ليس مجرد كلمة تحفظها بلسانك ومن الداخل غير موجود، خصوصًا أننا عدنا على أنفسنا هذا الفهم كثيرًا وقلنا:

حينما تأتي الملائكة في القبر للعبد تسأله عن الأسئلة الثلاثة، فيثبت وتسأله: "ماذا صنعت في حياتك؟" يقول: "قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت"، فتقرأ كتاب الله تجد كل كلمة من هذا الذي تقرؤه في قلبك يقينًا.

حينما تسمع أوصاف المنافقين خصوصًا ما اشتهر في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ اقرأها في كل كتب التفسير، تجد معناها: "ألم نكن معكم نشهد شهادتكم، ونصلي صلاتكم، ونجلس ونحضر مجالسكم؟!"

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

فحين نقول: "قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقته"، لا بد أن تكون كل صفة من هذه الصفات الخمسة تامة في الوضوح.

المقصد من وراء هذا الكلام: أن الذي ينظر للواقع يقول: "لا يوجد حلّ إلا أن نعتصم بالكتاب والسنّة"، بشرط أن يكون هناك يقين؛ لأن انعدامه يسبب ركامًا من الجهل، ركامًا من الالتفات إلى غير الله، ركامًا داخل القلب، ولا يشعر الإنسان! وهذا الكلام لا يسبب اليأس، إنما يسبب أن نكون صادقين على الأقل ونحن نقول لربنا في الفاتحة: "اهدنا الصراط المستقيم"، هداية الصراط المستقيم بيده -سبحانه وتعالى-، لكن الله -عزَّ وجلَّ- يقول عن الصادق، الحاضر القلب: "هذا لعبدي ولعبدي ما سأل". فعلى الأقل نشعر أن الصراط المستقيم شيءٌ لا بد أن نتمسك به، ونخاف عليه ونحرص عليه، نشعر أن الناس يسقطون حقيقة! تجده زمنًا على الهدى، وتكون الحقائق تامة الظهور له، وفجأة

يأتي يقول لك: "قد تغيرت قناعاتي"! ويدخل في فلسفة بدايتها أرض نتفق عليها، نهايتها الله أعلم بها!

فعلينا أن نذكر أنفسنا دائمًا بهذه المفاهيم، ونرى أنها تستحق حقيقة قضاء الوقت فيها وإعادتها، والسبب: أن المؤمنين المتقين يسيرون على منهج من سلف، وهذا ابن أبي مُليكة تابعي من كبار التابعين، يقول: "أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- كلُّهم يخافُ النِّفاقَ على نفسهِ".

فمعناه أن المؤمنين المتقين لابد أن يكونوا خائفين، وتصوروا جيدًا أن الله ذكر النفاق في سورة المنافقون وفي سورة النساء قال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1].

وفي سورة النساء قال عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

ليكون في مشاعرنا أن المنافقين كفارٌ، الله يقول في سورة المنافقون: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾. معناها أنه دخل الإيمان ثم خرج من قلوبهم! نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يزيدنا إيمانًا، نحن وذرارينا والمسلمين ويقبل منا طاعاتنا فتكون سببًا لزيادة الإيمان، اللهم آمين.

(١) المنافقون: ٣.

كنا قد مررنا على بابين في كتاب الاعتصام، ووصلنا إلى الباب الثالث، قال: (بَاب: مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ).

وهذا له علاقة واضحة بمسألة الاعتصام بالكتاب والسنّة:

في الباب الأول البخاري أخبر عن وصف الكتاب والسنّة، نقل قول النبيّ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» فالكتاب والسنّة: جوامع الكلم، يعني كلام قليل فيه معانٍ غزيرة. ماذا تستفيد من هذا الوصف؟ يعني مهما طال الزمن، مهما تغيرت المشاكل، مهما حصلت أحوال، اقرأ القرآن ستجد في القرآن ما تريد؛ لأنه كلمات قليلة، مليئة بالمعاني.

وأكيد اليوم سمعتم خطبة الشيخ، وكان هذا المعنى بالضبط موجودًا في الخطبة، أنك تجد في القرآن الآداب والإرشاد لما يصلح المجتمع، كل شيء مهما تغير المجتمع، مهما تغيرت الأحوال، مهما طالت الأمور، تجد في نفس كلمات القرآن ما يرشدك إلى الصواب.

إذًا هذا وصف الكتاب والسنّة، ماذا أفعل لاستخرج هذه الكنوز؟ جاء في الباب الثاني قال: (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم-). معناه أنه ليس لكل شخص فينا أن يفهم كلام الله كما يريد؛ لأن كلام الله اختبارٌ على الخلق، فيه ﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ وصفهنّ: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1]، والأُخر المتشابهة غالبًا الناس الذين في

(١) آل عمران: ٧.

قلوبهم زيغٌ يتبعونها، يأتون لآية من المتشابه ويخرجون في الإعلام على الناس، ويتكلمون كأنهم مرشدون ومصلحون، وهم في الحقيقة يستخدمون كلام الله كما يريدون! فلكيلا نسير وراء هؤلاء، لا بد أن يكون فهمنا لكلام الله وكلام رسول الله فيه اقتداء بسنن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- ؛ ولذا ذكر البخاري هنا كلام مجاهد وابن عون، قال:

بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم-

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قَالَ -مجاهد-: أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السنّة أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ.

يعني لأَصِل لجوامع الكلم أفعل هذه الثلاثة. إذًا هذه الثلاثة كأنها طريق الأخذ بكتاب الله.

كيف تأخذ جوامع الكلم؟ تتعلم السنّة وتسأل عنها، تتعلم القرآن وتتفهمه وتسأل عنه، وتدع الناس إلا من خير.

وفهمنا هذا الباب، ثم أتى الباب الثالث في الاعتصام، قال: (بَابُ: مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ.)

معنى ذلك حين تُقبل على كتاب الله، مطلوب منك أن تسأل كما قال ابن عون، قال: "وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ" هناك قال: "وَيَسْأَلُوا عَنْهُ"، وهنا يقول: "لا تتكلف في السؤال"

إذًا معنى ذلك: أن المطلوب منك حين تُقبل على الكتاب والسنّة، أن تسأل بطريقة الموقن، تسأل بطريقة المؤدب، نحن سنتفق كيف تسأل بطريقة توصلك إلى الحق، وليس طريقة الشاك في الحق، وكنا اتفقنا على أن السائل لابد أن يكون عنده مجموعة آداب ويسأل في أمور معينة من أجل ألا يضل.

نذكر أنفسنا بالكلام الذي قلناه ومنه نبتدئ لما بعده: حينما تسأل، لا تسأل عن شأن يتصل بالغيبيات.

أي شأن يتصف بكيفية صفات الله أو الغيبيات، هذا ممنوع السؤال فيه، علينا أن نكون حذرين، ونؤكد على هذه المسألة؛ لأن كثيرًا من الناس استعملوا مسألة الحرية في غير موضعها، وأصبح مفهومًا مقبولًا، ويقولون: "أنت حر، اسأل عمّا تريد"! فوصل الناس أن يتعدوا حدودهم على دين الله! فدخل هذا المفهوم على أي شيء حتى على السؤال الذي يتصل بدين الله وبكتاب الله!

فلا تسأل عن الكيفيات الغيبية، فكل صفة ثبتت لله -عزَّ وجلَّ في كتاب الله أو على لسان رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم-، سنتيقن بها،

نثبتها كما وردت من غير تحريف ولا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل، ولا ندخل عقلنا في فهم كيفية الصفة، تسمع أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، وتسمع أن ليس كمثله شيء. فلا تشبّه الله بخلقه، ولا تقل: "الثلث الأخير يتنقل فكيف يكون ذلك؟"! هذا ما يكون في عقلك أنت، أما بالنسبة لله فهو شيء لا يمكنك الوصول له، ليس كمثله شيء، الأمر في حق الله ليس مثل الأمر في حق الخلق. إذًا هذا باب يُغلق، ليس من حق أحد أن يسأل فيه، والسبب في ذلك: أننا بطبيعتنا البشرية لا نحتاجه، وقد مر معنا سابقًا أن الإنسان كما في أحوالنا العادية لا يسأل إلا عن الشيء الذي يحتاجه، والمثال بسيط جدًا: هذه أجهزتنا التي نستعملها ونتصل بها، نحن لا نعرف كيفيات عملها، لكننا بكل يسر وسهولة نستعملها.

فهذا شاهد على أننا لا نسأل بطبيعتنا إلا عمّا ينفعنا، فعقلك أصلًا ليس بحاجة لهذا، بل لو أتى أحد يشرح لك، ترفض.

فإذًا معنى ذلك أن ما ورد في كتاب الله فقط هو الذي تحتاجه، وأي شيء آخر يتصل بالأمور الغيبية أنت لا تحتاجه، أنت فقط تحتاج أن تتصور كم نعيم أهل الجنة بالأنهار التي تجري من تحتهم.

وانظر في سورة النحل، تأتيك أخبار عن أشياء أنت تحتاجها، وفي سورة محمد تأتيك أخبار عن جنات النعيم، ورد في سورة محمد وفي

سورة النحل خبر عن الماء، كيف ينزل من السماء، فيجري في الأرض ثم يدخل في الآبار، ثم أنت تأخذه من الآبار وتصفيه.

وتسمع في سورة محمد أن الأنهار تجري من تحت أهل الجنة، يعني هنا ماء ينزل من السماء، وتمر بعملية شاقة إلى أن تصل له. هذا في النحل.

أما في سورة محمد يقال لك: "من نعيم أهل الجنة أن الأنهار تجري من تحتهم"، ثم يأتيك في سورة النحل خبر عن أن الناس ينتفعون من هذا الماء بخروج النبات، ومن ثمَّ يعصرون ومن ثمَّ يأتيهم الخمر، وهذا الخبر قبل تحريم الخمر، يعني كأنه يخرج منها العصائر.

في سورة محمد مباشرة يقال لك: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾[1]، يعني هناك يتعبون ليخرجوها، وهنا الخبر عن أنها تجري من تحتهم، لا تحتاج أن تتخيلها، كأنه يقال لنا في سورة النحل: أنت تعيش في الدنيا لتُخرج الشيء الذي تحتاجه، يكون الأمر فيه مشقة، وانظر للخبر عن الماء، والخمر والمشقة فيهما، ثم يأتي الخبر عن اللبن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[2] فكيف أن اللبن يخرج من بين هذه الأشياء المستقذرة، ثم نشربه صافيًا، لكن عملية إخراج اللبن ليست سهلة هنا

(١) محمد: ١٥.

(٢) النحل: ٦٦.

في الدنيا، أما في الآخرة يقال في سورة محمد: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾!

لماذا وردت هذه الأخبار؟ ليس لتفكر كيف يأتيني نهر من لبن، لا، بل لتقول: انظر كيف في الدنيا بصعوبة نخرج اللبن، وفي الآخرة تجري به الأنهار!

إذًا ليس مشكلتك كيف تجري به الأنهار؟ أنت قضيتك أن تفهم أن هنا في الدنيا مشقة وتعب، حتى الذي تحبه في الدنيا مشقة وتعب، لكن في الآخرة كل شيء يسير.

ثم تسمع في سورة النحل كيفية إخراج النحل وكيف أن الله -عزَّ وجلَّ- أوحى إليها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم تسمع في سورة محمد: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ فلا تسأل: كيف تجري أنهار من عسل مصفى؟ المطلوب منك أن تفهم النتيجة.

نقارن بين هذا وهذا، انظر كيف نخرج العسل هنا بصعوبة وفي الآخرة الأمر أيسر ما يكون؛ لأن رب العالمين يجازي الخلق الذين عاشوا في المشقات يذكرون ربهم، ويحمدون ربهم، ويثنون على ربهم، ويعرفون

كمال صفات ربهم. خرجوا من المشقات هنا، انتقلوا إلى الدار التي فيها كل محابهم، من ماء، من خمر، من لبن، من عسل، أصبحت أنهارًا!

في خضم هذا الكلام، ما فائدة أن تسأل عن كيفية جريان هذه الأنهار؟! ما فائدة هذا السؤال؟ ما له فائدة! أصلًا مجرد كونه يتحول إلى أنهار فهذا بنفسه عجيبة من العجائب، يعني أنت لست محتاجًا لا لإبل ولا لغنم، ولا محتاج إلى سحاب ولا مطر ولا نحل ولا أي شيء. عندك أنهار، "كيف؟" ما هي قضيتك!

فالمقصد: أن كل الأخبار الغيبية ما يصلح فيها أن تسأل: "كيف؟" وأنت لست بحاجة لكي تعرف، يعني لا يصلح لأن عقلك لا يتحمل، وأنت لست بحاجة. في القرآن قيل لك فقط ما تحتاجيه، والذي لا تحتاجه ما قيل لك. وانظروا للقصص القرآني، كل القصص القرآنية تقول لك الخبر الذي تحتاجه، أكثر من الخبر ما يقال لك، يعني لما وصف مثلًا حالة قارون، كيف أن عنده كذا، سمعت عن قارون ما يناسبك لتعرف ضخامة الملك، لكن ما وصِفت الأوصاف الدقيقة؛ لأنك لست بحاجة إليها. إذًا معنى ذلك أننا لن نسأل عن كل شيء يتصل بالغيب، سواء يتصل بكيفية صفات الله، أو كيفية الغيبيات عمومًا أو كيفية أحداث يوم القيامة.

حين تسمع الخبر من الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم- : «إذا قُبِر أحدُكم - أو قُبِر الإنسانُ - أتاه ملَكانِ فيقالُ لأحدِهما المنكرُ والآخَرُ النكيرُ فيُجلِسانِه»[1]، فلا تحتاج أن تقول: "كيف يجلس في هذا القبر الضيق؟"! الذي تحتاجه أن تقول: "كيف يثبت وقت السؤال؟"، فمفهوم الحرية الذي جاءنا من الشرق والغرب جعلنا نجعل عقولنا حَكمًا على كلام الملك القدوس، حَكمًا على أخبار النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ! والمشكلة أصبحنا من جهة نتواصى بالصلاة على الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم-، ومن جهة أخرى نتعدى عليه!

كيف نسمع قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[2]، ثم نرفع أصواتنا على سنّته، أو نجد أنفسنا متعدين على السنّة، ننتقدها؟! هذا هو سوء الأدب، انظري للناس كيف يمسكون مصاحفهم ولا يتصورون أن هذا الكلام الذي يمسكونه، الله يسّره من نعمته، والخلق ما يشكرون نعمة التيسير، هذا الكلام الذي يمسكونه الله تكلم به، ثم إن الملائكة لما سمعت كلام الله، أُغشي على ملائكة السماء جميعًا! وكان أول من فاق جبريل -عليه السلام- وكان ينزل من السماء إلى السماء بكلام الله -عزَّ وجلَّ-، حتى أن الله -عزَّ وجلَّ- في

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١) باختلاف يسير.

(٢) الحجرات: ٢.

سورة سبأ قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ حتى إذا زال الفزع عن قلوبهم، قالوا: "ماذا قال ربنا؟"، يرد جبريل يقول: ﴿الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

أين هذا في قلوبنا، من جهة تعظيم الله وتعظيم كلامه؟ أنتم ترون كيف يكون التعامل مع المصاحف؟ تجدون من تترك طفلها يعبث بالمصاحف ويسحبها، ثم لو أخذت من ابنها المصحف، تنظر لك أن "لماذا؟ اتركيه"! وهذا التصرف مع كلام الله المقدس المكتوب، فكيف يكون التعظيم في القلب؟! إذا كان الكلام المقدس مكتوبًا ولسنا قادرين على أن نحافظ عليه، فكيف يكون مكانه في داخل القلب؟ واسأل عن ذلك أيضًا في سنّة المصطفى -صلَّى الله عليه وسلّم-!

فالمقصد الآن: لا بد من التعظيم، ومفهوم هذه الحرية يجب أن يكون واقفًا عند حدّ؛ لأن كل منّا لا يستطيب أن يأتي شخص جاهل بحاله، وينتقد في تصرفاته! ماذا تكون مشاعرك تجاه الجاهل الذي ينتقد تصرفاتك؟ لا تقبل، مع أنك بشر، وقد تخطئ، لكن لا تقبل على نفسك الانتقاد. إذًا كيف يُفعل ذلك مع الله؟! ويُفعل من عباد، ضعاف، ما لنا صفة حقيقية إلا الضعف والذل، ونقول: «اللهمَّ إني عبدُك، وابنُ

عبدِك، وابنُ أمَتِك، ناصيتي بيدِك ماضٍ فيَّ حكمُك»[1] ثم نجد أنفسنا نتطاول على كلامه وعلى سنّة نبيه -صلَّى الله عليه وسلّم- !

أصبح الكلام في مكان والاعتقاد في مكان آخر. نحن ناقشنا في اللقاء الماضي هذا الكلام بالتفصيل. سنبدأ الآن في النص الأول:

بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

• حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ -صلَّى الله عليه وسلّم- قَالَ: "إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ".

← يُتصور هذا الحديث في حياة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- بوضوح، يعني يكون الأمر ليس حرامًا، من المسكوت عنه، ويسأل أحدهم ويسأل إلى أن يصل ويصبح حرامًا!

لكن بعد النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- كيف نتصور المسألة؟ نتصورها بسهولة خصوصًا مع من أُصيبوا بوسواس، كثيرًا ما يقعون في مثل هذا، نضرب مثالًا: نكون في الحج ثم يكون في دورات المياه صابون، الصابون

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢).

ليس معطرًا، لم يستعمل أصلًا للتعطير، ولم يوضع للتعطير، فتبقى إحداهنّ تسأل، إلى أن يقول لها من يفتيها: "لا تستعمليه"! فتسبب لنفسها ولغيرها الحرج.

وتكون مثلًا في معاملة مالية، اتفقوا على تحليلها، وبيّنوا خطواتها، ويأتي أحد من أهل العلم درسها، خصوصًا من كبارهم الذين نثق فيهم، ويقول: "هذه المعاملة بهذا الوصف، حلال". فيبقى يسأل إلى أن يضيّق على المسلمين واسعًا! فهذه الأسئلة ليست من التقوى، إنما هذه الأسئلة من الوسوسة. وكثير من النساء خاصة، تأتي أسئلتهم عن الطهارة، تأتي أسئلتهم عن الصلاة، تأتي أسئلتهم عن الدين، ليس من منبع الامتثال للدين، إنما منبع الوسواس الشيطاني. فإذا قيل لك من ثقة: "إن هذا حلال" أو "هذا حرام"، ما دام أنه ثقة، تثق في دينه وتقواه؛ إذًا مطلوب منك أن تقف، وإلا ستكون من أكثر الناس جرمًا وذنبًا.

اقرئي بدون السند مباشرة:

• عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -صلَّى الله عليه وسلّم- اتَّخَذَ حُجْرَةً فِي الْمَسْجِدِ مِنْ حَصِيرٍ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- فِيهَا لَيَالِيَ حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ، ثُمَّ فَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "مَا زَالَ بِكُمُ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ، حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ مَا قُمْتُمْ بِهِ،

فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ، إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ".

← هذا الحدث كما هو واضح في رمضان، النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- اتخذ حجرة في المسجد من حصير خارج بيته يعني أمام المسلمين، فصلى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- فيها ليالي.

المسلمون يحبون الاقتداء بالنبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، فاجتمع إليه الناس يصلون في آخر الليل معه، وأذن لهم -صلَّى الله عليه وسلّم-، وهذا الحديث أصل في مشروعية صلاة التراويح وقيام الليل جماعة في رمضان.

ثم فقدوا صوته ليلةً، فظنوا أن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- قد نام، وهو -صلَّى الله عليه وسلّم- إنما ترك ذلك خوفًا وخشية أن تُفرض عليهم. الآن انظر التكلف، يعني إلى حبهم متابعة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- والصلاة معه، يُثنى عليهم؛ لأن ليس لهم إرادة إلا الخير، لكن ليس كل مريد للخير يصيبه! إلى هنا قِف، أنت تريد الخير، ووجدت هذا الباب مغلقًا، قِف عنده.

لكنهم ماذا فعلوا؟ جعل بعضهم يتنحنح ليخرج إليهم، يعني إذا كان نائمًا، يشعر من صوتهم أنهم في الخارج.

خرج النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- قال: "مَا زَالَ بِكُمُ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ -يعني أنكم تصدرون أصواتًا لأسمعكم- حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ

عَلَيْكُمْ -النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- خشي أن يُكتب عليهم قيام الليل-، وَلَوْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ مَا قُمْتُمْ بِهِ، - رأى النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- أن ما فعلوه تكلّفًا؛ لأنه -صلَّى الله عليه وسلّم- لما أذن لهم بالاجتماع في الأيام التي مضت وترك الخروج لهم، فهذا معناه أنه ما أراد الخروج لهم، فلا يتكلفون ما لم تأمرهم الشريعة، ثم قرر لهم النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- : -فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ، إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ".

هذا نموذج ونقيس عليه. الله -عزَّ وجلَّ- يفتح للخلق أبوابًا للطاعة، يعني يتيسر لك عمرة أو غيرها، حين يفتح الله الباب، أنت أقبل مباشرة، لا يعطيك فرصة وتتوانى.

لكن أين المشكلة في التكلف؟ أن تكون الفرص غير موجودة، تكون الأحوال غير ميسرة، فيتكلف العبد أن يدخل في العبادة، يتكلف أن يقوم بأشياء الله -عزَّ وجلَّ- جعلها مباحة أو جعلها مسنونة، أبوابها ما هي واضحة بالنسبة له، ما هي يسيرة، فيصل الإنسان في التكلف، إلى أن يترك واجبات من أجل مسنونات! والسبب في ذلك: أن عدم السير على سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، تجعل الإنسان يميل مع ما يميل هواه! حتى في الطاعات!

نأتي بمثال: بالنسبة لنا النساء المتزوجات والصيام، الآن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- أذن للمرأة أن تصوم التطوع كما أذن للرجل أن يصوم، لكن ربط صيام المرأة تطوعًا بإذن الزوج، وإذن الزوج لا يعني الحاجة لأي شيء في النهار، بل إذن الزوج يعني مجرد الإذن. هذا الله فتحه للنساء كلهم، لكن جاء عليك وأُغلق، إذا أُغلق لا تتكلفي، الأولى في مثل هذا الموقف أن نبقى عند الإذن، وعوضي، فأبواب الطاعة كثيرة. فتقوم تبكي وتشكي وتنعي على هذا الباب! وأين الأبواب الأخرى؟! لكنه الهوى! وإلا فطاعة الزوج هي أولى من الصيام، فالمسألة ليست هوى، أطِع الله كما أمرك الله، ولا تتكلف شيئًا لا تستطيعه.

ننتقل للحديث التالي:

• عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةَ غَضِبَ، وَقَالَ: "سَلُونِي"، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَبِي؟ قَالَ: "أَبُوكَ حُذَافَةُ". ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: "أَبُوكَ سَالِمٌ؛ مَوْلَى شَيْبَةَ"، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- مِنَ الْغَضَبِ قَالَ: إِنَّا نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ.

← هذا الحديث تكرر في هذا الباب ثلاث مرات بروايات متعددة.

أولًا نشرح سببه، ثم نقرأ الروايات المتعددة؛ لنفهمه بالإجمال.

ما هو السؤال الذي أغضب النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- وقال لهم: (سلوني)؟

فيما يذكر حول هذا الحديث: أن المنافقين أخذوا يشككون في نبوة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، ويجعلون سؤاله كأنه اختبار له، يختبرون صدق رسالة الرسول! فأما أن يأتي هذا الأمر من المنافقين فهذا أمر طبيعي، لكن أن يأتي هذا الأمر من المؤمنين، فكان هذا غير متوقع.

المفترض أن كثرة السؤال وتكلف ما لا يعني، يتوقف عنه المؤمن، وقد يقع فيه المنافق. فماذا فعلوا؟ سيأتينا في الرواية الثانية كيف أن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- شعر بحالهم، فقال: (سلوني) فقام جماعة من المسلمين وسألوا النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، فغضب النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، وسنرى السبب الذي أغضبه حين سُئل.

نقرأ الرواية الثانية:

• عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -صلَّى الله عليه وسلّم- خَرَجَ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى الظُّهْرَ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَذَكَرَ السَّاعَةَ وَذَكَرَ أَنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا أُمُورًا عِظَامًا، ثُمَّ قَالَ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ

عَنْهُ، فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا".
قَالَ أَنَسٌ: فَأَكْثَرَ النَّاسُ الْبُكَاءَ، وَأَكْثَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- أَنْ يَقُولَ: "سَلُونِي" فَقَالَ أَنَسٌ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيْنَ مَدْخَلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "النَّارُ"، فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ فَقَالَ: مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَبُوكَ حُذَافَةُ"، قَالَ: ثُمَّ أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ: "سَلُونِي سَلُونِي" فَبَرَكَ عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ -صلَّى الله عليه وسلّم- رَسُولًا، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- حِينَ قَالَ عُمَرُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ، وَأَنَا أُصَلِّي فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ".

← تبين لنا أن هذا الحديث إنما كان في حادثة الكسوف لما صلى النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- صلاة الكسوف ورأى الجنة والنار في عرض الحائط، وكان في هذا الحين المنافقون يطعنون في نبوة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

وأنس يروي الحديث وهو صغير، يروي حال الصحابة كيف كان، فخرج النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- على منبره فقال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ عَنْهُ)؛ لأنهم كانوا يسألونه ويغمزونه، يريدون أن يقع النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- في خطأ. وهذا يشبه ما يحصل من القوم

حينما يسألون أهل العلم الثقات الذين هم على المنهج، ويريدون أن يوقعوهم في حرج، وهو نفسه الذي حصل مع البخاري، والإمام البخاري فتنته إنما أتت بسؤال، حتى أنه خرج من المدينة التي كان فيها وسُئِل فيها، فوقعت الفتنة، خرج منها إلى قرية قريبة ومات، ولم يشيّعه حتى ثلاثة إلى قبره!

والسبب: السؤال الذي أُريد به الفتنة.

فالمقصد: أنهم سألوا النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

قال أنس: (فأكثر الناس البكاء). لماذا؟ لأنهم عرفوا أن كلام النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، ردًا على تكذيب المنافقين له؛ ولذلك برك عمر في آخر الحديث على ركبتيه فقال: (رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينا وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلّم- رسولًا).

ما العلاقة؟ الآن هذا الشاهد الذي يهمنا.

ما العلاقة بين كثرة سؤال النبي وبين أن يبكوا الصحابة وعمر يبرك على ركبتيه؟ العلاقة واضحة، حينما تفكرون في سؤال اليهود موسى -عليه السلام- في قصة البقرة. اليهود سألوا وسألوا وسألوا موسى -عليه السلام- عن البقرة، وليس لإرادة الطاعة ولا الرضا بالدين، إنما لإرادة عدم الامتثال. فعمر -رضي الله عنه- شعر من طلب النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- للسؤال، (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ عَنْهُ)، أن كثرة

السؤال للنبي -صلَّى الله عليه وسلّم- إنما أتت من باب عدم الرضا بالدين.

ومن يقول: "أنا عندي أسئلة تدور في عقلي"! نقول: أول الدين الإيمان، يعني تؤمن بأن الذي نزل الشرع عظيم، كريم، مليك، قدوس، سلام، مؤمن.

قدوس: منزه عن النقائص.

مليك: يحكم في ملكه.

سلام: أمره كله سالم من النقص والعيب.

بعد أن عرفت الله وعظّمته، ماذا تنتظر ممن وصفه الكمال؟ أن يأمرك بكل ما فيه مصلحة، وينهاك عن كل ما فيه مفسدة. إذا كنت واثقًا في الله؛ سيحصل عندك استسلام لأوامره ونواهيه.

إذا عظّم العباد الله، وعرفوا كماله وجلاله؛ ستكون النتيجة: أنهم سيستسلمون لأوامره ونواهيه، فما يأتون على الأوامر والنواهي ويتكلمون عنها بالتفصيل، إنما هم واثقون في أنه الحكيم العليم.

وأنت حين تجرب أحدًا في مسألة وتجده هنا أحسن وهنا أحسن، بعد ذلك لا تسأله؛ لأنك وثقت فيه، ولله المثل الأعلى.

السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء السابع

تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله -سبحانه وتعالى- كما سبّب لنا أسباب طاعته بالاجتماع في هذا المكان المبارك، أن يجعلنا ممن قُبلت طاعاتهم، اللهم آمين.

كنا ولا زلنا -الحمد لله- نجلس هذا المجلس المبارك، نناقش هذا الكتاب المهم في كتاب صحيح البخاري وهو كتاب الاعتصام.

وكنا كلّما جلسنا ذكّرنا أنفسنا بأمر مهم تام الوضوح، كلنا نشعر به، وهو ما يعيشه المسلمون من هزيمة نفسية، وعدم قوة تمسك بكتاب الله وسنّة الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم-. حتى أن القوم بدأ فيهم الاستحياء من إظهار مظاهر الدين، وحتى أن بعضهم -نادرٌ وقليلٌ- بدأ يشكك في قواعد الدين وأصوله، حتى أن بعضهم تطاول من وراء الحجب، فتكلم في ذات الله وفي كلام النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، وطعن في عظمة الله وفي هذا الدين الكريم! كل هذا له سبب تام الوضوح، وهو: أن القوم ظنوا أن الدين بالتمني.

يعني يظن الإنسان نفسه أنه يكون من أهل الإيمان والتقوى، بمجرد أن يدّعي أنه من أهل الإيمان والتقوى، لو تمنى ذلك على الله، لو تمنى أن يكون من أهل الجنة! وحينما نقرأ سورة الحديد، نرى كيف يصف الله -عزَّ وجلَّ- أهل النفاق، وكيف أنهم يسيرون في نور مع المؤمنين يُخدعون بذلك، كما كانوا يظنون أنهم يخدعون الله في الدنيا، يُخدعون فيسيرون في النور، ثم يُطفأ نور أهل النفاق، ويُضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة من قِبل المؤمنين، وظاهره العذاب من قِبل المنافقين، ثم يسأل المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ يعني ألم نكن معكم، نصلي صلاتكم، ونذكر ذكركم، ونصوم صيامكم، قالوا: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، فيبقى الإنسان متمنيًا أنه من أهل الإيمان، متمنيًا، يعُدّ بعض أعماله على أنها مقبولة، ثم يطمئن نفسه، وهذا ليس سَمْت السلف الصالح، ليس سَمْت الصحابة الكرام، وهذا ابن أبي مُليكة تابعي من كبار التابعين، يقول: "أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- كلُّهم يخافُ النِّفاقَ على نفسهِ". وأعظم مَن وصِف لنا أنه يخشى على نفسه النفاق، وهو مشهود له بالجنة، عمر -رضي الله عنه-، فإن عمر في موقف عظيم كان فيه مع حذيفة -رضي الله عنه- وحذيفة كما هو معلوم أمين سر النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، فمرّت جنازة فأراد

عمر -رضي الله عنه- اتباعًا للسنّة أن يتْبعها، فأشار إليه حذيفة -رضي الله عنه- أن دعها، اتركها، لا تسِر وراءها، تبين لعمر -رضي الله عنه- مباشرة أن هذه جنازة منافق؛ لأن حذيفة -رضي الله عنه- أمين سر الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم-، فكان يعلم أسماء المنافقين، ففي لحظة خشوع وخضوع وذل ونسيان لمنزلته وبشرى الرسول له، يستحلف عمر -رضي الله عنه- حذيفة بالله: "يا حذيفة، ناشدتك الله، هل سماني لك رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- من المنافقين؟" كيف ينسى عمر المقامات العظيمة التي له؟! كيف ينسى أن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- قال له: «والذي نَفْسِي بيَدِهِ ما لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إلَّا سَلَكَ فَجًّا غيرَ فَجِّكَ.»[1].

كيف ينسى كل ذلك؟! لكن هكذا أهل الإيمان، أذلاء لله، لا يعتبرون نفسهم إلا أنهم يرجون رحمة الله.

فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "يا حذيفة: ناشدتك الله، هل سماني لك رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا".

خرج هذا القول من حذيفة -رضي الله عنه- بسبب قوة إيمان عمر -رضي الله عنه-.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٣).

الشاهد بالنسبة لنا: أن أهل الإيمان ما يعتمدون على التمني، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، يعني ليس صورة تظهرها ولا أمنية تتكلم عنها وتتمناها في قلبك، إنما ما وقر في القلب وصدّقه العمل.

و "ما وقر في القلب" هذا هو نقاشنا، الذي يجب أن يكون موجودًا في القلب هو قوة الاعتصام بالكتاب والسنّة. والمعتصم هو من يتمسّك بقوة، يعلم أنه في بحر لجّيّ، الدنيا هذه بمثابة البحر المحيط، بحر لجّيّ، الفتن تتخبط الناس، ومُدّ له من السماء بحبل متين، وهو القرآن والسنّة، فإذا أراد نجاة نفسه، تمسك واعتصم، والتمسك عملية ليست باليسيرة، لتتمسك وتتمسك، أنت تحتاج كل قوتك في هذا التمسك، والحبل يكاد يقطع يدك! لكنك تعلم أنك لو أفلته، ستقع في البحر اللجّيّ. وكثير من الناس في المجتمع عمومًا، يشعر تجاه الدين أنه أمر يسير، إذا دخله ما يحتاج فيه لجهاد، ولا يحتاج فيه لاعتصام، ولا يحتاج فيه إلا أن يقدم ما يستطيع، والذي لا يستطيع لا يطلبه! وهذه مفاهيم من جهة صحيحة ومن جهة مغلوطة:

صحيح أن الدين يسر، صحيح أن الإنسان يفعل ما يستطيع، لكن لا بد أن يكون صادقًا في استطاعته، يعني كيف تستطيع أن تفعل للدنيا ما تفعل، وتجتهد وتعتصم بحبال وأسباب الدنيا، ولا تستطيع مثلها لدين الله؟! والله مطّلع على الخلق، كيف تسير لدنياك وحينما تطوف هنا،

تقول: "سبعة أشواط كثير، طواف واحد يكفيني"! هذه أقدام قد سارت كثيرًا، والله مطلع على هذه القوى، ويعلم أين تستعمل قواك!

نعيد على أنفسنا مسألة مهمة، وهي: المعتصمون لا يعتصمون ويتمسّكون إلا إذا كانوا يشعرون بالخوف، أما إذا كانوا يرون الدنيا مكان أمن فإنهم لن يتمسّكوا بما جاء في كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

وعرفنا سابقًا أن كتاب الاعتصام في صحيح البخاري، وصحيح البخاري موجود فيه كتب، ابتدأت بكتاب "بدء الوحي" وانتهت بكتاب "التوحيد"، وكل كتاب فيه مجموعة من الأحاديث، ونحن نناقش كتاب الاعتصام من صحيح البخاري، وطريقة البخاري في عرض أبوابه: أنه يعرض أحاديث فقط، يعقد أبوابًا لها أسماء، ويستشهد بأدلة من القرآن، ثم يورد الأحاديث عليها. كأنه في كل كتاب يعقده يقول: "كيف تصل إلى هذا؟"، هنا في بابنا: "كيف تصل إلى الاعتصام؟"، مثلًا في كتاب الدعوات: "كيف تدعو الله على طريق السنّة؟" في كتاب الفتن "كيف تحذر الفتن؟" فكل باب يعقده لا يريد فقط إيراد الأحاديث، إنما يريد أن تصبح فقيهًا، فكأنه يقول في كتاب الاعتصام: من رأى الدنيا أنها اختبار وامتحان وأراد النجاح، فما عليه إلا أن يعتصم بالكتاب والسنّة.

ثم تناقشنا في بابين، ومررنا على الثالث جملةً.

الباب الأول سماه: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ".)

كأنه يقول: "ماذا تظن في الكتاب والسنّة؟" لابد أن تعتقد أن الغنوة فيهما؛ لأن الإيمان ما وقر في قلبك، والنبي -صلَّى الله عليه وسلّم- قال: «ليس منَّا مَن لم يتغَنَّ بالقرآنِ»[1]. يعني أنت استغنِ بالقرآن والسنّة عن أي مصدر فكري، ما تحتاج لتزكية نفسك ولا لتربية من هم تحت يدك، ولا لإصلاح اجتماعي ولا فكري ولا اقتصادي، إلا أن تنكب على هذا الكتاب. يأتي من يقول: "أنا عندي مشاكل، ولا أجد طرق حلها في الكتاب، يعني ما أجدها باسمها"! نقول: الكتاب والسنّة وصفهما: جوامع الكلم، فإذا قلّبتهما كما ينبغي، سترى كلامًا قليل، ذا معانٍ عظيمة.

إذًا الذي ينظر للكتاب والسنّة، لا يظن أن الكتاب والسنّة يأتيانه بوصف الحال، كما يصف الناس للناس الأحوال الدقيقة، إنما كلام جامع يدلّك.

إذًا حين يكون الكتاب والسنّة جوامع للكلم، وأنت تريد أن تعتصم بهما، فليس قراءة الجرائد التي تأتيك بهذا الاعتصام! بل اجتهد، فهذا الكتاب عزيز، كما قال تعالى في أوائل غافر: ﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فالله العزيز، أنزل الكتاب العزيز، فهو لا يصل لأي

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

أحد إلا بعد جهد منه؛ لأن هذه المكانة العليا في الجنة التي تلحق أهل الكتاب، لا تكون إلا لمن بذل مهجته للكتاب، أما من لم يبذل مهجته للكتاب فكيف يتساوى مع من بذل مهجته؟! فهو كتاب عزيز، لا يناله إلا من أقبل عليه،

والناس اليوم حينما يرون أحدًا وقد حصّل الدرجات العلمية، ينظرون له على أنه أكيد بذل جهدًا لكي يصل، وكلهم يتفقون أن طبيبًا خبيرًا، ما وصل لذلك وهو ينام طوال الليل ويلعب طوال النهار، يعني في الدنيا الناس يتصورون قدر الجهد المبذول ليرتفع الإنسان، فكيف يكون البذل لجنات النعيم؟! الدين يُسر على من أقبل عليه وطوّع نفسه له، ومن يُسره أنك إذا طوّعت نفسك له، تصبح العبادة شيئًا أنت تحتاجه، وهذا شيء تشعر به المرأة، حين تأتيها الدورة الشهرية، ولا تصلي، تشعر أنها ضائعة؛ لأن الصلاة أصبحت عبارة عن حاجة من الحاجات الأساسية، ليس شيئًا ترغم نفسك عليه إنما شيء ترغبه، فالدين صحيح يُسر، لكن حين يوقَر في القلب، ولا يُستهتر به. يُسر يعني حينما تذوق حلاوته، تجد أنه أسهل ما يكون، فمعنى ذلك أنك ستجد في هذا الدين ما تريد، وتجد في كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ما تريد، فلا تجعل الخلق يشبهون عليك الأمر فيشتبه.

اتفقنا على أننا إذا كنا نريد أن ننجو، فإن الدين صحيح يُسر، لكن بعد أن تعتصم بالكتاب والسنّة، ولتعتصم لا بد أن تنظر لهذا الكتاب على أن كل شيء تحتاجه موجود فيه، لا بد أن يستقر في قلبك أن الذي خلق العبد لا يمكن أن يتركه تائهًا. ماذا نظن بأحكم الحاكمين؟ أن الذي وضع كل شيء في مكانه، لا يمكن أن يترك الإنسان تائهًا. كيف نظن ذلك، وهو -سبحانه وتعالى- خلق الإنسان هذا الخلق العظيم، خلق بدنه ورزقه من الأرض التي تنمو فيها الأشجار وتنزل عليها الأمطار، هل بعد ذلك لا ينزل على روحه ما يجعله خصب القلب؟! كيف نظن به هذا الظن؟! فالذي آمن بالله، علم أن كل ما يحتاجه في كتاب الله.

إذًا كتاب الله يعتبر مرجعًا للخلق، غنوةً للخلق.

إذا كنت تريد أن تزكي نفسك، فلن تحتاج للشرق ولا للغرب، إنما أنت تحتاج أن تعطي قوتك كلها لكتاب الله، فإذا علمنا أنه جوامع الكلم، وجب النظر له كما نظر النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- والصحابة الكرام له؛ لذا جاء الباب الثاني: (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم-.)

وفي هذا الباب سمعنا شيئًا في غاية الأهمية، وهو: أن تعلمنا للكتاب والسنّة ليس على آراء الناس.

حينما يأتي أحد يقول: "يجب علينا أن نتمسك بالكتاب والسنّة"، يأتي الخلق ويعطونه آرائهم في الكتاب والسنّة!

حينما يتفق الخلق على أن مصدر كل علم الكتاب والسنّة، تأتي مشكلة أخرى: كيف نفهم الكتاب والسنّة؟ ما دام الكتاب والسنّة وحيان، إذًا لابد أن نفهمهما على فهم النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- والصحابة الكرام.

فأتى الباب الثاني يقول: (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم-.)

ثم أورد في مطلع هذا الباب كلام ابن عون: "ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السنّة أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ."

أي أن الذي يريد أن يعتصم، عليه أن ينكب على القرآن والسنّة، أي يعطيهما نفسه.

فماذا يفعل في السنّة؟ يتعلمها والذي ما يفهمه، يسأل عنه.

وماذا يفعل في القرآن؟ يتفهمه، يعني يقرؤه ولبّه معه، قلبه معه.

وماذا يفعل مع الناس؟ يدع الناس إلا من خير.

معنى ذلك أنني لا أدّعي أني معتصم بالكتاب والسنّة، لمجرد أني من أهل الإسلام. إنما المعتصم بالكتاب والسنّة قام بالثلاثة الأولى، فيُعتبر

بالنسبة له القرآن والسنّة حياته، فكره، مرجعه. وهذا معناه أنك حين تريد أن تفهم أي معنى في الحياة، أو مثلًا تريد أن تصاحب أحدًا، الآن وقد ظهر أمامك معنى الاعتصام بالكتاب والسنّة، ماذا ستفعل؟ كلمة "صاحب" هذه، بلفظها، ابحث عنها في القرآن، ابحث عنها في السنّة، ثم ابحث عن معناها، ثم انظر للخلق كيف يصاحبون؟ خصوصًا إذا وجدنا أن رجلًا دخل الجنة، فقال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ماذا كان يفعل فيه؟ يشككه في صحة الدين، في الاستقامة عليه، في حب الخير ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، إلى أن نأتي إلى قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[1].

فعلى الإنسان أن يميز حين يصاحب أحدًا، هل يشككه في الدين أو يقلل من قيمة الدين؟ اقرأ آيات الصافات عشر مرات أمام عينيك؛ لتنجي نفسك، ولا تجعل المحبة التي يمكن أن تدخل عليك تغلبك على هذا الأمر.

الشاهد: أنه ما من شأن أنت تحتاجه إلا وتجد في القرآن والسنّة شاهده، إما بلفظه وإما بمعناه.

إذًا المعتصم يجعل الكتاب والسنّة بالنسبة له مرجعًا، كل مسألة تحتاجها، تجدها في الكتاب والسنّة.

---

(١) الصافات: ٥١-٥٥.

ومن طريف المسائل التي يحتاجها الناس ويتكلمون عنها، ويفكرون فيها الأماني، يتمنون الأشياء، وهذه الأماني قد ذكرت في كتاب الله ثلاث عشرة مرة، وذكرت في السنّة، حتى أن البخاري جعل في صحيحه كتاب اسمه "كتاب التمني"، بمعنى أنه حتى أمنياتك التي تتمناها، هذه التي تدور في خاطرك، قد أتى في كتاب الله الكلام عنها، وأتى في سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- الأخبار عنها.

بمعنى أنك إذا كنت تريد أن تضبط أي شيء في نفسك، فستجد أثرًا له في الكتاب والسنّة.

إذًا المعتصم ينظر للكتاب والسنّة على أنهما مرجعه، وفيهما جوامع الكلم، وحينما يريد أن يفهمهما، يقتدي بالرسول -صلَّى الله عليه وسلّم- وصحابته، يفهم على فهمهما، يفهم على فهم السلف الصالح، الرسول والصحابة الكرام.

فلا يأتِ شخص ويخترع لك معنى للآية، ويقول لك: "هذا معنى كلام الله"!

لأن الله قال عن القرآن: فيه ﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ وصفهنّ: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1]، والأخر المتشابهة غالبًا الناس الذين في قلوبهم زيغ يتبعونها، فيخترعون تفسيرًا ويقولون إنهم معتصمون بالكتاب

(١) آل عمران: ٧.

والسنّة، لكن ليس لهم من الأدلة إلا المتشابه، بحيث أنهم يطرحون أمراضهم ومقاصدهم من خلال كلام الله وكلام رسوله.

فالحل لهذه المشكلة قريب جدًا بصورة لا نتخيلها! وهو: جمع القلب وقتما نقول: "اهدنا الصراط المستقيم"! لأن الله يجيب هذا العبد الذي صدق ويقول: «هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ.»[1]، فمن أراد أن يستقيم على الصراط المستقيم، ويخرج من وصف المنافقين إلى وصف المؤمنين، فليصْدق وهو يطلب من ربه أن يهديه الصراط المستقيم.

وهذا الحمد لله في متناول اليد، ها نحن نكرر الفاتحة مرات ومرات في صلواتنا، انظروا كيف نكررها في الفرائض وفي السنن وفي قيام الليل وفي الضحى. فاجمع قلبك عليها وتأمل وأيقِن بأن ربك لن يخذلك وأنه سيدلّك على الصراط المستقيم. والذي يكون على الصراط المستقيم هنا، ينجو يوم القيامة على الصراط المضروب على متن جهنم، ويسير فيه سريعًا كسيره سريعًا للامتثال لأوامر الله وأوامر رسوله -صلَّى الله عليه وسلّم-.

كنا انتهينا من البابين الأولين، ثم قلنا: هذا المعتصم قد يظن حين نقول له: "افهم الكتاب وافهم السنّة"، أن المقصود أن يكثر الأسئلة، فأتى الباب الثالث قال: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.)

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

والمعنى العام المقصود: احذر، مَن اعتصم بالكتاب والسنّة لا يكون مثل بني إسرائيل. بنو إسرائيل جاء خبرهم في أطول سورة في القرآن، وهي سورة البقرة، وسميت السورة باسم الحادثة لخطر الحادثة.

مع أن سورة البقرة فيها الإسلام والإيمان والمعاملات والاعتقادات وكل شيء عن الدين، يعني سورة البقرة كأنها تقول: "هذا هو الإسلام"، ومع عظمتها وكلامها عن الدين كله، سميت بسورة البقرة؛ بسبب قصة البقرة، فكأنه يقال: العباد إما مستسلمون، وإما مثل أصحاب البقرة، معترضين. أنت إذا كنت مستسلمًا، لن تكون مثل أصحاب البقرة.

ما صورة اعتراض أصحاب البقرة؟ كثرة سؤالهم، دائمًا تأتي هنا مشكلة:

"أنا عندي أسئلة وعقلي موجود، فلا تلغوا عقلي" اليوم في خطبة الجمعة، أجاب الشيخ الجواب الكافي، وتكلم عن العقل ومنزلته، وكيف أن العقل لا يكون عقلًا إلا إذا عَقِلك. فالعقل في لغة العرب هو: الحبل. الحبل الذي يربط الدابة فيمنعها، هذا هو العقال ومنه أتى العقل، فالمفترض أن يمنعك عقلك أو يسمح لك. على أي أساس يمنعك أو يسمح لك؟ لا بد أن تتعلم ما هو الصواب، وما هو الخطأ، أين الخطر، وأين النجاة. لأجل أن يردّك عقلك حينما تقترب من الخطر، ويحثّك على الإقدام على مواطن النجاة. لكن لو ما كنت تعرف ما هو الخطر، ولا

تعرف ما هي النجاة، على أي أساس سيسير هذا العقل؟ على هواه، ليس إلا.

فإما يسير بالهوى، وإما أنه يكون سببًا لنجاتك؛ لأن العقل أداة، هو لا يُنتج المعلومة، بل العقل يستعمل المعلومة، وانظر للصغير، نحن نقول: "ما عنده عقل"! لأنه يقترب مثلًا من طرف مكان عالٍ، وقد يهوي! والسبب: أنه لا يعقل، يعني لا يعرف، إن هذا المكان الاقتراب منه خطر! كيف يصير عاقلًا؟ حين يعرف الخطأ، فيمنعه عقله من الخطر.

يعني لا بد من معرفة، ثم شيء يعقلك، لكن بدون معرفة سيكون مجرد هوى، فلا تحكمك المعرفة الصحيحة، بل حينئذ تحكمك اللذة.

وانظر لصغارنا، لو نقول لهم: "ادرسوا، والذي ما يدرس ما ينجح والذي لا يبذل جهدًا طوال السنّة، آخر السنّة ما تنفعه العجلة"! كل هذه الدروس التي نقولها لهم، المفترض أن نقولها لأنفسنا، المفترض أن يدركها عقلنا. لماذا؟ لأنك في اختبار أيضًا، ألسنا سنُسأل في قبورنا أسئلة، ومن ورائها تكون النجاة، ويُسأل العبد عن شيء عاشه طوال الحياة، كأنه يقال له: "طوال حياتك، أنت لا بد أن تعرف من ربك"؛ من أجل أن تجيب حينما يأتي الملكان يجلسانك فيسألانك: "من ربك؟" تكون قد عرفته في الحياة كلها فتوفّق لأن الله -عزَّ وجلَّ- في سورة إبراهيم يخبرنا من يثبّت، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ﴾ الذين آمنوا، الذين وقر الإيمان في قلوبهم، فحين تسأل هؤلاء الذين آمنوا: "من ربكم؟" تراهم في الدنيا يثنون عليه، تراهم في الدنيا يعرفونك به، يقول لك أحدهم: "ما سترني غيره، ما رزقني غيره، كل جميل في حياتي هو الذي أعطاني إياه، كل علم تعلمته هو الذي علمني، سيَّدني وزوجني ورزقني وأطعمني وسقاني"

فتجده في حياته يعيش وهو يعرف من ربه؟ فالذي في حياته يعرف من ربه، هذا الذي يُتوقع أن يجيب حينما تسأله الملائكة.

فلا بد أن نتعلم عن الله، نتعلم من هو الله، ألم يخبرك الله عن نفسه في كتابه، من الفاتحة حتى سورة الناس؟! ألم يخبرنا أنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[1]، أين كل هذه الأوصاف من الفهم؟! أين هي من المعايشة؟ أين هي من الإخبار عنها؟ أين هي من تلمّسها؟ أين إحساسنا بأن هنا جبرتني، هنا أطعمتني، هنا سقيتني، هنا سترتني، هنا علمتني وأدبتني؟ إلى أن يصل العبد إلى النجاح في إجابة سؤال: "من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟"

الشاهد: أن مَن آمن واتقى حقيقة، وجعل القرآن هاديه يهديه إلى النجاة، عليه أن يتعلم لكن بالطريقة الصحيحة، بمعنى أن كثرة السؤال ليست دلالة على التعلم، إنما صحة السؤال هي الدلالة على التعلم.

---

(١) الحشر: ٢٣.

بنو إسرائيل ماذا فعلوا، ودلّ ذلك على عدم استسلامهم؟ أكثروا السؤال وليس في شيء مهم، أو شيء يستحق، فالله -عزَّ وجلَّ- كان سيقبل منهم أي بقرة ذبحوها، لكن سبب أسئلتهم: أنهم غير ممتثلين لأمر الله، ولأنهم لا يريدون أن يمتثلوا، فيكثرون من الأسئلة، هذا يشبه حينما تطلبين من ابنتك كوبًا من الماء، فتقول: "باردة أم حارة؟ كل الكوب أم نصفه؟!" كل هذه الأسئلة لأنها لا تريد القيام!

فهذه الأسئلة تصدر من مشاعر الرفض. يأتي شخص ونقول له: "الله يخبرك عن نفسه أنه ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، الله يخبرك عن نفسه أنه استوى على العرش". أنت ماذا تقول؟ آمنت بالله، وحين تسمع قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1]، تشعر أن هذا القلب وجد قبلة يتجه إليها، كما أن بدنك يتجه في الصلاة إلى القبلة، فبمجرد أن تحتاج تجد قلبك يفزع إلى العلو. وكل الفطر تقول: "العظيم لابد أن يكون في العلو". فيأتي شخص يجادل فيقول: "كيف استوى على العرش؟ وما وصف العرش؟ وأين مكانه؟"! وكل هذه الأسئلة ليست في مكانها، أنت تتعلم ما أخبرك الله، والسؤال الصحيح: "ماذا أعتقد في العرش؟" فنقول لك: تسمع من أخبار النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- أنه أعظم مخلوق، وأوسع مخلوق، وغير ذلك من الأخبار عنه،

(١) طه: ٥.

لكن تسمع الأخبار وأنت مؤمن، بأن ما جاء في هذه الأخبار الغيبية حق وصدق، ولو عقلك ما استوعبها، والحقيقة أن هذا أمر فوق أن يستوعبه عقلك، إنما أتاك الخبر ليتجه قلبك، قال رسول الله: «يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يقولُ: مَن يَدْعُونِي، فأسْتَجِيبَ له؟ مَن يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ؟ مَن يَستَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له؟»[1] تسمع هذا، فتنتفع من كونه يناديك، تريد أن تستغفر، لك حاجة، افهم هذا وانتفع منه، لا تسأل: "كيف ينزل؟"، و"الثلث الأخير يتنقل"، وتأتي باعتراضات وأسئلة ما تصدر إلا ممن لا يعرف من هو الله، بل يقيس الله بالخلق؛ ومن يقول: "الثلث الأخير يتنقل". نقول: "في حكمك أنت يتنقل". لكن عند الله الأمر أعلى، والله أعلم به، وهذا الأمر تشعر به جيدًا عندما تعرف أن الناس في الأرض يسيرون على أقدامهم، لكن ما أن يخرجوا من هذه الكرة الأرضية إلا وترى الذين كانوا يسيرون في الأرض، يطيرون في الجو، يعني حينما يخرجون خارج الجاذبية الأرضية، تتغير القوانين تمامًا، فكيف تحكم على الله بقوانين تحكمك؟! كيف تتكلم على الله بهذه الطريقة؟! ما يتكلم على الله بهذه الطريقة إلا من لا يوجد في قلبه الاستسلام لعظمة الله؛ ولذلك العقول التي آمنت بعظمة الله، تستسلم للأخبار الغيبية، يعني أنت حولك كل ما يشهد لك

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥).

بأن الله عظيم، سماء ذات أبراج، أرض ذات فجاج، بحار ذات أمواج، كلها تشهد لك، فقط تأمل في شيء منها وستعرف من هو الله، إذا عرفت من هو الله وعظمته وجلاله، لا بد أن تستحي من أن تعترض على حكمه؛ لأن الحكيم الذي وضع كل شيء في مكانه، سيضعك ويضع أحوالك في مكانها، وتستحي أن تقول: "أنا أريد أن أدرك كيفية صفات الله"، كل هذه الأسئلة من الأسئلة الممنوعة، التي السؤال عنها يعتبر تكلفًا.

سنأتي اليوم لأحد الأسئلة الخطيرة التي يمكن أن يسحبك الشيطان لها، واعلم أن الشيطان أحد أهم مثيراته: الأسئلة التي ليست في مكانها، لكن الأسئلة التي في مكانها، تدل على أن النفس زكية، أما حينما تسأل أسئلة ليست في مكانها، فهذا دليل على أن القلب قد يكون فيه مرض، والشيطان انتفع من هذا المرض، يعني قد يكون فيه نقطة شك والشيطان بدأ يضخمها ويكبرها.

الآن نقرأ الحديثين ونرى:

• حدثنا مُوسَى، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ، عَنْ وَرَّادٍ - كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ - قَالَ: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ: اكْتُبْ إِلَيَّ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلّم-، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا

مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"، وَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّهُ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَمَنْعٍ وَهَاتِ.

← هذا الحديث فيه أن معاوية -رضي الله عنه- كتب إلى المغيرة -رضي الله عنه- أن يكتب له بحديث سمعه من النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

فأخبره بحديثين:

الحديث الأول ما كان يقوله -صلَّى الله عليه وسلّم- في دبر كل صلاة، لن نناقشه؛ لأنه ليس شاهدنا في الكتاب، ثم قال: (إِنَّهُ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَمَنْعٍ وَهَاتِ.)

والمعنى واسع جدًا، لكن سنأتي بالقدر الذي يناسب موضوعنا.

(قِيلَ وَقَالَ) هذه اليوم دخلت بثقافة أخرى وبقيمة أخرى دائرة حول طرح كل شيء للحوار.

أما الحوار منفردًا بدون ضوابط، بدون وضع قيود عليه، فأنه فلك للفكر والحوار هذه كلمة مطاطية، تنفع أن تكون قيمة جيدة، وتنفع أن تكون دخيلة من دواخل الشيطان، أصبح كل شيء قابلًا للحوار والنقاش!

كل شيء قابل على الأصح للجدل، فأصبح الجدل كأنه مهارة، والذي أكثر جدلًا وأكثر أسئلة وأكثر طرحًا أكثر تضييقًا، يكون في نظر الناس أقوى، حتى أصبح الإعلام ضاج بالجدل بين هذه الفرقة وهذه الفرقة ويأتون بهؤلاء وهؤلاء، وتصير أنت تنظر إليهم ولا تدري أين الحق؟! إلى أن وصل القيل وقال في المسلمات! فيأتي برنامج كذا ويقول: "هل الجن موجودون؟" يكفي السؤال طعنًا في كتاب الله، أليس الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]؟! ألم تأتِ سورة في القرآن اسمها سورة الجن؟! ثم يطرح أحدهم مثل هذا الموضوع طرحًا على أنه قابلٌ للحوار أو القيل القال أو الجدل، على أي أساس؟ على أساس أن تخرج على الأقل بنسبة من الشك. ويكفيهم منك نسبة من الشك، وهكذا في كل شيء صار قيل وقال أصبح فنًا!

حتى أن الناس يتعلمون فن الجدال! على أن الجدال هذا موصل للخلق إلى ما يريدون، والحق الحمد لله واضح، ما يحتاج إلى كل هذا الدوران! لكن الفائدة عندهم من هذا كله التمييع، حتى أنه يأتي لمسائل قاطعة في الدين ويقول لك: "لا، بالنسبة لي الأمر كذا"! فتصبح حتى الثوابت التي في الدين، نسبية!

(١) الذاريات: ٥٦.

عمومًا (قِيلَ وَقَالَ) هذا مجاله واسع وخطير، وسيتبين لنا في الحديث الأخير كيف توصل (قِيلَ وَقَالَ) إلى نهاية غير جيدة.

ثم قال: (وكَثْرَةِ السُّؤَالِ): هذه لها معانٍ كثيرة، لكن بالنسبة لنا في هذا الموطن: كثرة السؤال عن القطعيات، عن الأمور القطعية، كثرة السؤال فيما لا حاجة لنا فيه، كثرة السؤال في الغيبيات وحقائقها، يعني أنت الآن تُخبر عن حقائق غيبية، سواء كانت فيما مضى من الأقوام أو فيما سيأتي، مثلًا تُخبر عن الدجال في سنّة الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم-، وتُخبر أنه سيكون في عصره كذا وكذا، فتجد أحدهم يسأل أسئلة تفصيلية، ما تزيد في إيمانه شيئًا، والمفترض أنه حينما يسمع الخبر يعظُم الدجال في نفسه، فيخاف، فيستعيذ من الدجال، والأربعة أشياء التي نستعيذ منها قبل السلام، منها الدجال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[1]

يعني لتستعيذ كما ينبغي من فتنة المسيح الدجال، لا بد أن تسمع أخباره

وليس من أجل أن تعرف كأنك تعيش معه، أو كأنك تراه رأي العين، ما نريد أن تراه رأي العين، نريد أن تعرف عنه خبرًا يعظم شأنه معه،

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٧).

فتخاف منه فتلجأ إلى الله. فالمنهي عنه: كثرة السؤال عنه بصورة لا تزيد الإيمان، يعني الأسئلة التي لا تزيد الإيمان هي المقصودة هنا في كثرة السؤال، اسأل فقط عما يزيد إيمانك، فاسأل عن أوصاف الله، اسأل كيف يعامل الله خلقه؟ ماذا يحب الله؟ ماذا يبغض الله؟ كيف يكون لقاؤنا بالله؟ كيف يكون لقاء المؤمنين؟ كيف يكون لقاء المنافقين؟ اسأل عما ينفعك ولا تدخل في تفاصيل تتصل بالكيفية، ولا أمور تتصل بالغيبيات، ما يأتيك من الخبر عن الله -عزَّ وجلَّ- فاقبل به.

وأكيد أن (قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ) تتطور إلى ما يأتينا في الحديث التالي، الذي يبين لنا كيف نصل إلى هذه الحالة؟

• حدثنا الْحَسَنُ بْنُ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا شَبَابَةُ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟! ".

← المقصد: أن كثرة السؤال حين يتعود الناس عليها، وتُبث فيهم على أنها قيمة عليا، وأنها دليل على التحرر، ودليل على أن عندك عقل يفكر، تكون هذه النتيجة!

والصحيح أننا بهذه الطريقة ما نكون جعلناه يفكر التفكير الصحيح، الله رزق العباد عقولًا ليتفكروا حقًا، لكن كما قال -سبحانه وتعالى- في

أواخر آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

إذًا هؤلاء أولو الألباب، ويشبه هذا المعنى ما أتى في أوائل سورة البروج، حينما أقسم الله -سبحانه وتعالى- بالسماء ذات البروج: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فكأنه يقال: لو تفكرتم في السماء وبروجها، وكيف أن هذه الشمس وهذه القمر تنزل في بروجها، في اثنى عشر برجًا، فتعيشون سنتكم تحت هذا النظام العظيم الذي وضعه الله، لو نظرتم إلى أن السماء بهذه البروج تشهد على حكمة الله، وتفكرتم فيها، لعلمتم أن من وضع في الدنيا كل شيء في مكانه، سيأتي اليوم الموعود ويضع المؤمنين في مكانهم والكافرين في مكانهم، وسيكون كل شيء حولنا شاهد ومشهود.

فمن تفكر في البروج ومواطنها وكيف اثنا عشر شهرًا، باثني عشر برجًا تنزل فيها الشمس في السماء ولا تتغير إلى أن تقوم الساعة، يتصور أن الذي وضع هذه الشمس في موضعها، ووضع القمر في موضعه، سيضع المؤمنين والمجرمين في مكانهم يوم القيامة، في اليوم الموعود سيضع كل عبد في مكانه.

وأنت تمر مثلًا على رصيف، وتجد في هذا الرصيف قد خرجت - والرصيف هذا الاسم يعني من أقوى ما صنع الناس- من داخله زرعة، نبتة، فتقول: "سبحان الله".

كيف أخرجها الله -عزَّ وجلَّ-؟! فتقول: "الذي أخرجها، يخرجني من كل ضيق". فيبقى العبد يفكر في هذه الأشياء ويعتبر بها.

هذا هو التفكير.

كذلك في أوائل سورة يونس، جعل الله الشمس والقمر وحركتهما دلالة على البعث. من أي وجه؟ انظر للشمس تولد مع الفجر، فتشب وتصبح شابة في رابعة النهار، ثم تموت مع كل غروب.

وانظر للقمر مثلها، يولد مع أول الشهر، فيصبح شابًا مع الابتداء، ويموت في آخر الشهر.

فكل هذا يقول: الذي جعل هذه الأشياء في مواطنها بهذه الطريقة، حكيم عزيز، له كمال الصفات، فتؤمن به، فتطمئن، وترضى بفعله، وتنتظر لقاءه، فتحب لقاءه.

هنا العقل يفكر، لكن مع ثقافة الحوار والأسئلة...! ولا زلنا نقول: "الحوار" هذه كلمة لو وضعناها في مكانها الصحيح تكون صحيحة، لكنها ما استخدمت في مكانها الصحيح، بدليل أن الناس أصبحوا يتحاورون في شيء ما يفهمونه! ودعنا نضرب مثالًا لنتصور: الآن لو طلبوا منا أن

نخطط لمدينة من المدن، وأين نضع محطات البنزين! ونحن كمجموعة متقاربون في الثقافة، لنا في شؤون التربية، لنا في شؤون الاجتماع في البيوت، لكن ليس لنا علاقة بهذا الأمر، فلا نستطيع أن ندخل حوارًا مثل هذا الحوار.

فتخيل أن يأتي أناس لا يعرفون في المسألة المراد نقاشها شيئًا، ثم يقال لأحدهم: "تعال، حاورنا" على أي أساس؟ وأنت حين تمرض، لا ترضى أن تذهب لطبيب حديث التخرج، بل تذهب إلى خبير لكي تكلمه ويكلمك وتسأله فيعطيك جوابًا، فكيف في مسائل طب القلوب ومعرفة الله -عزَّ وجلَّ- نأخذ من أي شخص؟!

الشاهد الآن: أن الناس مع التطور في هذه المسألة، وصلوا إلى تجاوز الخطوط الحمراء، فأطلقوا لأنفسهم العنان، يفكرون فيما يريدون، إلى أن وصلوا إلى التفكير في ذات الله! قالوا: "هذا خلقه الله، وهذا خلقه الله"، فوصلوا فسألوا: "من خلق الله؟"! وهذا بعينه الذي أورث أناس كثيرين الشك في دين الله.

الآن نريد جوابًا:

عندنا مسألتان أساسيتان:

أولًا: أن الله حينما خلق الخلق، خلقهم على ما نسميه الفطرة السوية، وهذه الفطرة السوية اسمها عقل الإدراك.

يعني الطفل الصغير يأتي بفطرته السوية معه عقل إدراك، يدرك مسائل كثيرة، منها

- أن كل فعل لابد له من فاعل.
- يدرك أن صفة الفعل تدل على صفة الفاعل.

تجد الطفل الصغير عمره سنتين، وحين يسمع طرق الباب، يقول: "من؟" لماذا؟ لأن عقل إدراكه يدرك أن طرقًا على الباب لا بد أن يكون له طارق. هذا فعل ولا بد أن له فاعلًا.

ثم يبدأ يلاحظ أن الطرق القوي مثلًا يعني أن الطارق رجل كبير، والطرق البسيط يعني طفل صغير. فيبدأ يفهم

- أن صفة الفعل تدل على صفة الفاعل.

مثلا لو تلعبون معه وتضربونه من خلفه، أول شيء يقول: "من؟" لأنه متأكد أن كل فعل لا بد له من فاعل، لا يمكن أن يقبل أن فعلًا بلا فاعل.

ثم يستطيع أن يميز الضارب من صفة الضربة؛ لأن صفة الفعل تدل على صفة الفاعل، إلى أن يأتي يقول: "لا بد من الجزاء".

فكل هذه من الأمور الفطرية التي تكون عند هذا الصغير، ومنها

- أن كل شيء لابد أن ينقطع.

فنصل إلى شيء مهم وهو: هذا الصغير يؤمن بشيء مهم جدًا وهو

- أن كل شيء لابد له من بداية ونهاية.

يفهم هذا جيدًا أن كل شيء لابد له من بداية ونهاية، بمعنى أنه يفهم أن هناك شيء اسمه "أول النهار" و "آخر النهار"، "أول العام" و "نهاية العام" يفهم أن كل شيء لا بد له من بداية ونهاية، ونحن كذلك نتعامل مع هذه الحقيقة بصورة طبيعية، يأتي شخص يسألك: "من أول أولادك، ومن آخر أولادك؟" وحينما تسمع عن اختراع تقول: "من أول من اخترعه؟ من آخر من استعمله؟" ومن أول من بنى كذا؟ ومن أول من فتح كذا؟، فكلنا عقولنا تقول: "لابد لكل شيء من أول".

إذا هذه النقطة مهمة جدًا، الإنسان خلق على فطرة سوية.

ثانيًا: أن من هذه الفطرة قطع التسلسل.

حينما يكون الإنسان عنده معاملة في أي مكان، يقولون له: "اذهب إلى ألف ثم باء..."، فيقول: "من آخر شخص؟"

يعني عقولنا تقول: كل شيء لا بد أن له بداية ونهاية، فيأتي الخبر: «أنت الأولُ فليس قبلكَ شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدكَ شيءٌ »[1]

والله خلقنا على أننا لا نقبل أن نأتي بشيء ونقول: "ليس له بداية" ما نقبل أبدًا، وكانت من الأكذوبات التي انتشرت بين الناس وأدخلتهم في هذا أن هناك شيء اسمه لا نهاية، لا يوجد شيء اسمه لا نهاية.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

فالله هو الأول الذي ليس قبله شيء، ولذلك في سورة الحديد بعد ما أخبر -سبحانه وتعالى-: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، قال لنا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

يعني الأول الذي ليس قبله شيء، هو الذي خلق السماوات والأرض.

فلا يحتاج العقل أبدًا أن يصل فيقول: "من خلق الله؟" إنما العقل يقبل أن لكل شيء أول، يعني نفوسنا ما تهدأ إلا إذا قُطع التسلسل.

يعني حينما يأتي أحد يقول: "من أين أتى هذا الخبر الذي ورد في البخاري؟" نقول حدث البخاري عن فلان وعن فلان. فيقول: "من حدث فلان؟" إلى أن يصل إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

فلا بد أن تعرف من أين أتى الأول، فهذه فطرة إنسانية، لو ترك الإنسان وخُلّي مع فطرته، لن يسأل: "من خلق الله؟" ولن يمر على خاطره هذا السؤال.

فتأتي المسألة المهمة الآن: وهي أن الشيطان يأتي لهذه النفوس التي اعتادت على ترك نفسها تسير في الأسئلة بدون أن تضع حدودًا وخطوطًا حمراء، يأتي لها فيستولي عليها، فما يتركها إلا وقد ذهب بوجدانها!

فما الحل؟ الحل: الاستعاذة.

الحل: أن يعرف الإنسان أن الله خلقه خِلقة قابلة للتوقف عن التفكير،

وهذا الصغير مثلنا، الصغير والكبير على فطرة سوية، إذا ما دخل له من يعبث في فطرته، ما يمر على خاطره هذا السؤال، وإذا قلت: "الله الأول" سيفهم أن الله الأول. والصغير يحتاج منا إلى تكرار لهذا المفهوم، أن الله الأول الذي ليس قبله شيء، وتعليمه الاستعاذة من الشيطان الرجيم، فإن الشيطان لا يستولي على الإنسان إلا إذا خرج من حمى الله، من بقي في حمى الله نجاه الله.

فنحن نحتاج إلى أمرين:

أولًا: نعرف أن حقيقة أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، موجودة في فطرنا، وعقولنا السليمة.

ثانيًا: نعرف أن هذه الإثارة إنما تكون من الشيطان الرجيم، ولا تكون أبدًا من عند الرحمن سبحانه وتعالى.

فمن دخل في حمى الله حماه الله.

نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن نكون في حماه وأن نكون ممن أعاذه من الشيطان الرجيم، اللهم آمين!

السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء الثامن

تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن نكون أولئك القوم الذين اجتمعوا في مجلس من مجالس العلم، فيقال لهم: «قوموا مغفورٌ لَكم، قد بدِّلت سيِّئاتُكم حسناتٍ»[1]، وهو -سبحانه وتعالى- يُحمد على هذه الفرص العظيمة، فرصة أن تعمل عملًا فيقال لك من ورائه: "قم مغفورًا لك". ونحن في هذا المكان المبارك، المكان العظيم، نُذكر أنفسنا بشيء عظيم ومهم وهو: أن من منّة الله -عزَّ وجلَّ- على خلقه أن هداهم الصراط المستقيم، خلقهم على خِلقة تقبل الطريق المستقيم، فَطرهم على فِطرة يعرفون بها الحق من الباطل، وهذه الخِلقة التي خلق الله -عزَّ وجلَّ- عليها الخلق وراءها الاختبار ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، هدانا الله -عزَّ وجلَّ- للنجدين ثم اختبرنا بتزكية أنفسنا، والتزكية ليس لها إلا طريق واحد، يعني الذي خلقنا أعلم

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٥٣).

(٢) الإنسان: ٣.

بنفوسنا، فمنّ علينا، فدلّنا الصراط المستقيم، أرسل لنا رسولًا وأنزل مع الرسول الكتاب العظيم، وسنّ لنا الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- السنن العظيمة، من أجل أن تصل إلى الصراط المستقيم الذي تسأله كل يوم، وتسأله في كل مرة تقرأ فيها الفاتحة، عليك أن تعتصم بالكتاب والسنّة.

وهذا هو موضوعنا: أمر الاعتصام بالكتاب والسنّة، ونناقشه من كتاب صحيح البخاري، ومن كلام الله، وكلام رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، الذي جمعه البخاري تحت هذا الباب في كتابه.

دائمًا نعيد على أنفسنا في بداية كل لقاء: لماذا نهتم بمناقشة الاعتصام بالكتاب والسنّة؟ لأن الله -تعالى- وصف الكتاب بأنه (حبل الله)، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾[1]، وقال رسول الله: «فإنَّ هذا القرآنَ سببٌ طرَفُه بيدِ اللهِ وطرَفُه بأيديكم فتمسَّكوا به فإنَّكم لنْ تضِلُّوا ولن تهلِكوا بعدَه أبدًا»[2]، فهو حبل مدّه الله من السماء، طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيد العبد الذي يمسك به، ويكفينا شرفًا أن نُمسك حبلًا طرفه يمسكه الله، والمقصود بذلك: أن الناس لابد أن يتصوروا أنهم غرقى في بحر لجّيّ، إذا ما تمسكوا بالحبل لابد أن يهلكوا؛ ولذا في سورة النور لما

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢٢).

وصف الله -عزَّ وجلَّ- القوم الذين في قلوبهم نورٌ من الله، وصف كذلك صنفين من التائهين:

الصنف الأول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

شبههم بمن يسير في صحراء ويرى سرابًا ويظن أن هذا السراب وراءه ماء، هو ظمآن، أي: مليء بالعطش، ومع ذلك يرى سرابًا يظنه الماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ثم وصف الصنف الثاني: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

هذه الصورة الحسية لشخص في داخل البحر، ويمنعه من نور الشمس موج، فوقه موج، وفوقه سحاب! ماذا يُنتظر لشخص في قاع البحر والشمس موجودة في النهار لكن يحجب الشمس سحابًا وبعد السحاب موجًا وبعد الموج موجًا آخر من الداخل، ماذا يُنتظر أن يصله من النور؟ لا شيء!

هذا بالضبط مثل قلب الإنسان الذي يكون في الظلمات، ما رأى نور العلم، ما شعر بشمس الهداية، ما تعرّف على الكتاب والسنّة كما ينبغي، يعني الآن أمامنا ثلاثة أشخاص لا رابع لهم:

الأول: مثل السراج، فطرته السوية هي زَيْته، وزجاجته الصافية هي قلبه، ثم اشتعلت فتيلته بالقرآن والسنّة، هذا الذي في قلبه نورٌ وضرب الله -عزَّ وجلَّ- له مثلًا، قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ﴾[1].

الثاني: يظن نفسه يسير على الصراط المستقيم، يخلّط، يأخذ من هذا ويأخذ من هذا، ويقول: "لا مانع في تزكية النفس أن نأخذ من أي أحد!" وفي الكتاب والسنّة الغُنّوة عن أي أحد، لكنه ما استغنى؛ ولذلك علينا أن نذكر أنفسنا دائمًا بهذا الحديث، قال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «ليسَ مِنّا مَن لم يَتغَنَّ بالقرآنِ» يعني ليس منّا من لم يستغنِ بالقرآن عن غيره.

فالثاني صاحب السراب ماذا فعل ليزكي نفسه؟ هو يريد أن يزكي نفسه لكنه خلّط على نفسه من هنا ومن هنا! ودائمًا يقول لك: "الحكمة ضالّة المؤمن"! صحيح الحكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق بها، لكننا ما ضلّت عنّا الحكمة، ما ضاعت منّا الحكمة لنبحث عنها، وها هو القرآن ينطق بالحكمة، والله أخبر أنه أنزل على رسوله الكتاب والحكمة، ففتش في هذا ولا تبتعد، فهذا يظن نفسه أنه سائرٌ على الصراط المستقيم، وهو يسير وراء السراب! ونحن عندما نقرأ في أواخر سورة الكهف نسمع عن قوم خطيرين جدًا، ما حالتهم؟ ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

(١) النور: ٣٥.

﴿يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] يعني هم ضالون، ويحسبون أنهم يُحسنون صنعًا! و ﴿يَحْسَبُونَ﴾ هنا مثلها بالضبط في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾[2]، فنفس الصورة منطبقة، يسير وراء السراب، يظن نفسه سيجد ماءً.

والأول صاحب مَثل الكهف يعمل أعمالًا ويتلقّف ثقافات، ويأخذ كلام الناس، ويظن نفسه يهتدي بها أو يزكي قلبه بها، وهو في الحقيقة يسير وراء السراب!

والثالث مثل الثاني لكن من صورة أخرى، ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[3] هذا أبدًا ما دخل له نور العلم والإيمان، أما ذاك صاحب السراب، فالشمس موجودة أمامه، يعني يرى النور، لكن ما يتحقق وما يسير في الطريق الذي يدله النور له، بل يذهب وراء السراب.

والثالث هذا الذي في الظلمات في بحر لجّيّ ما حالته؟ أبدًا هذا ما دخل له النور، معرضًا تمامًا، يعني قلبه في الداخل مثل الشخص الذي في داخل المحيط، أول موج فوقه: الجهل، الموج الثاني: الإعراض. يعني

---

(١) الكهف: ١٠٤.

(٢) النور: ٣٩.

(٣) النور: ٤٠.

جاهل ومعرض في نفس الوقت، وهذا حقيق بأن يُعرض الله عنه، وكما تعلمون في الحديث الثلاثة نفر الذين أتوا إلى مجلس النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-:

الأول: دخل ووجد فُرجة فدخل فيها.

والثاني: جلس في آخر المجلس.

والثالث: نظر لهم وتركهم.

فقال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «ألا أنَبِّئكُم بخبرِ الثَّلاثةِ؟ أمَّا الأولُ فآوَى إلى اللهِ فآواهُ اللهُ، وأمَّا الثَّاني فاستحيَا فاستحيَا اللهُ منه، وأمَّا الثَّالثُ فأعرضَ فأعرضَ اللهُ عنه»[1]

طبعا هذا الحديث خاص بمجلس النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لأن النبي أتى بالتشريع، فهذا الحكم لا يقاس عليه كل المجالس، وهؤلاء مثلهم أولئك القوم المنافقين الذين وصفهم الله في سورة محمد، كيف أنهم يجلسون في المجلس، ويستمعون لكلام النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الذي ليس فوقه كلامٌ، ومع ذلك يخرجون من هذا المجلس لا يفهمون شيئًا، ثم يظنون أنهم ليسوا مخطئين، وأن كلام النبي هو الذي لا يُفهم! وهكذا الناس بعد حياة النبي بنفس الصورة، يأتون إلى كلام الله وكلام رسوله، ولا يجعلون كلام الله وكلام رسوله أمام أعينهم، إنما يجعلون

(١) أخرجه البخاري: ٦٦.

كلام الله وكلام رسوله كأنه أحد الاختيارات! مثلًا يريد أن يتكلم عن العفو ويريد أن يربي أولاده على العفو، فيقول لهم: "فلان الفلاني -فليسوف من فلاسفة الشرق والغرب- يقول كذا وكذا في العفو، وأيضًا الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول كذا وربنا يقول كذا!" على حد سواء! هذا ما حقق كلام النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «ليسَ مِنّا مَن لم يَتغَنَّ بالقرآنِ»، أي: يستغني به عن غيره، فلا يلتفت يمينًا ولا يسارًا؛ ولذلك في تفسير آية النور، لما أخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- أن هذا السراج يأخذ زيته من شجرة مباركة، قال فيها: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[1]، يعني أنها سائرة على الفطرة السوية لا تحتاج أن تلتفت لا لليمين ولا لليسار، فعلينا أن نكتفي بما جاء في كتاب الله، والاكتفاء عبادة، أي أننا نعبد الله بأن نعتقد أن في كتابه وسنّة رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- الغُنّوة عن أي أمر، ما نحتاج إلى أي شيء، غير أن نفهم كلام الله وكلام رسوله.

وقد كررنا سابقًا، إن مشكلتنا مع كلام الله وكلام رسوله: أننا ما نعتقد فيهما الاعتقادات التفصيلية الصحيحة. نُعظّمه إجمالًا -الحمد لله-، المسلمون كلهم يعظمون كلام الله وكلام رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، إلا بعض الفِرق الذين يقولون -مثلًا-: "ما ثبتت سنّة الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-"! وهذا كذب؛ لأن الذي أنزل القرآن هو الذي أنزل الحكمة

(١) النور: ٣٥.

على رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهو الذي بيّنها، وكما حفظ القرآن سبّب أسبابًا لحفظ السنّة، لكن أي أحد يطعن في السنّة فهو لا يفقه ما معنى (إن الله يحفظ دينه)؛ لأنك عندما تقرأ القرآن من أوّله لآخره، ما تستطيع أن تحدد وصف الصلاة، ولا أوقاتها الدقيقة، إنما تثبتها من السنّة، فإذا هُدمت السنّة، هُدم الركن الأساسي في العبادة، وهكذا في تفاصيل الصوم، وهكذا في تفاصيل الزكاة، وكل ما تريد من أحكام الدين التفصيلية إنما هي في السنّة، فالذي لا يعلم أن الله حكيم وأنه -سبحانه وتعالى- كما حفظ القرآن حفظ السنّة، يطعن يمينًا ويسارًا! وهذه الأذرع معلومة، مَن يمد يده إلى السنّة ويعبث فيها، معلوم، وأسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يكفي المسلمين شرهم، وأن يحفظ شبابنا من هذه الأطروحات التي ولدت في لحظة واحدة! فأصبحنا نسمع الطعن في كلام النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بل وصلنا إلى الطعن في ذات الله، وكل هذا له سبب واحد: ضعف الاعتصام بالكتاب والسنّة، اكتفينا بأن اسمنا (مسلمون) لكن الإسلام يحتاج منّا إلى تمسك واعتصام، أو يكون الإنسان كأنه غارقٌ في بحرٍ لجّيّ، أو أحسن حالًا أنه يسير وراء سراب! لكن الذي يريد أن يكون على دين الله، لابد مع فطرته السوية وقلبه الصافي أن يشعل فتيلة السراج، من كلام الله وكلام رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

الاعتقاد العام في القرآن والسنّة -الحمد لله- جيد، لكن المشكلة الآن في الاعتقاد التفصيلي، فعندما ندرس هذا الكتاب من صحيح البخاري، علينا أن نعلم أن الله -عزَّ وجلَّ- قد قيّض رجالًا للسنّة، منهم هذا الرجل -البخاري- الذي بقي ستة عشر عامًا يجمع صحيحه، ويستخير -يصلي ركعتين- مع كل حديث يضعه، وهو لم يجمع فقط الأحاديث، بل فَهِمَها فهمًا دقيقًا، ومن يقرأ ويدرس صحيح البخاري، يعلم أن الله -عزَّ وجلَّ- قد وهبه ذكاءً جعله يستطيع أن يستنبط ويرتب، ينظر لنفس الحديث من وجوهٍ عدة؛ فيخرج منها بنتائج. فهذا فخر للإسلام قد أنعم الله -عزَّ وجلَّ- به على المسلمين، والله -عزَّ وجلَّ- حكيمٌ يجعل في كل زمن مجددين، والبخاري كان من هؤلاء المجددين خصوصًا في باب الحديث، ولا يربطنا بهؤلاء إلا الحب في الله، فلا يُمدحون لأجل عصبية، إنما يُمدحون من أجل ما يُعلم من منّة الله عليهم، ونحن نتمثل الحب في الله مع هؤلاء، فنحن نحب في الله الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، والصحابة الكرام الذين حملوا سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ودين الله، والتابعين، وتابعي التابعين، والعلماء المكرّمين الذين رفعهم الله، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وما يقع في قلبه حقدٌ على هؤلاء إلا مريض القلب، وإلّا فهؤلاء منّة منّ الله بها علينا.

الشاهد: من أجل أن تسير سيرًا جيدًا مع كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتكون حقًا معتصمًا بهما، عقد البخاري هذا الكتاب في صحيحه قال: "كتابُ الاعتِصَام بِالكِتابِ وَالسُّنَّةِ"

وانتزع كلمة الاعتصام من كلام الله ومن حديث النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، ما حبل الله؟ الكتاب والسنّة، وعندما تتصوره حبلًا، تعلم أن الذي سيتمسّك به، سينجو، ومن يتمسّك بحبل لينجو من المؤكد أن تحته هاوية أو بحرًا لجّيًّا أو أمرًا سيُهلكه، فما له إلا أن يتمسّك، فنحن لتصبح مشاعرنا صحيحة ونبذل الجهد الذي سيأتينا الآن، لابد أن نشعر أننا إن لم نتمسك هلكنا! وصورة الهلاك واضحة اليوم، أنت تسمع عن الإرهاب وسببه: عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة، وتسمع عن الإلحاد وسببه: عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة. وبين هذين الطرفين المتطرفين مصائب كثيرة في الوسط! لكننا نتكلم عن هذين الاثنين لِشُهرتهما، وإلا ففي الوسط توجد بلاءات كثيرة، والسبب شيء واحد: عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة، الناس يشعرون أن الكتاب والسنّة عظيمان، لكن لا يتعاملون معهما كما ينبغي.

وكان الأمر الأول لتعتصم بالكتاب والسنّة: أن تشعر بأن الله رضي لنا الكتاب والسنّة، فيحصل الاستغناء بهما.

وكان آخر ما نزل على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فيما اشتهر في رواية حجّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- قول الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1] فالذي رضيه الله نحن نرضاه. إذًا المعتصم الذي يريد أن يعتصم بالكتاب والسنّة، يرى أن الله رضي الكتاب والسنّة دينًا؛ فيرضى بما رضي الله، ويستغني بما أعطى الله، ويستغني، هذه كلمة لابد أن تدخل إلى الأعماق، تعني أن يقطع كل علاقة بغيرهما في بابها، يعني في باب التدين والقرب إلى الله وتزكية النفس وإصلاح المجتمع وإصلاح الاقتصاد...، يستغني بهما عن غيرهم، لكن مثلًا يخترعون طائرة أو سيارة، فهذا شأنهم، كلّ ما يتصل بإعمار الأرض هذا ليس موضوعنا، نحن نتكلم عن هذا الإنسان، هذا المجتمع، نتكلم عن الإصلاح، عن التزكية، عن العيش في سعادة، هذا الذي هو حِكر على كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وقبلما تفكر في أي شيء، لابد أن تشعر أنه لا شيء يساوي شيئًا أمام الكتاب والسنّة، ففيهما إصلاح النفس وإصلاح المجتمع، وبدونهما يكون الاعتصام ضعيفًا، يكون شخصًا متمسّكًا بالكتاب والسنّة لكن يده رخوة؛ لأنه يمسك الكتاب والسنّة بيد ويمسك غيرهما بيد أخرى! وربما حتى يترك الكتاب والسنّة! حتى لا يفلت منه الباقي! ومن صورة ذلك: مَن يأتون بأفكار من هنا ومن

(١) المائدة: ٣.

هنا، ويعجبهم الكلام الفلسفي، ثم يبحثون في كتاب الله عما يشبه هذا الكلام، ويضعون كلام الفلاسفة أمام أعينهم، ويلصقون فيه كلام الله وكلام رسوله! وطبعًا هناك مَن يلطف الله به، فما يأتي بطوام، وهناك من يقع في طوام كفرية، في كونه وضع كلام الله على كلام أصلًا غير مقبول، وغالبًا يحصل هذا في مسائل تتصل بالتوحيد والشرك مثل مسألة الطاقة، وكونهم يعتبرون الطاقة مصدرًا للحياة ومصدرًا للحول والقوة، ثم يقولون: "ألم يقل النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وفِي بَصَرِي نُورًا، وفِي سَمْعِي نُورًا»[1]" فجعلوا دعاء النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بطلب النور، كأنه هو الطاقة! طبعًا هم لا يفهمون لازم الكلام، هذا ليس كلامًا في الحُكم، بل هذا كلام في اللازم، إن قلنا: "إن النور هو الطاقة"، بماذا سنُفسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ حينئذ سنأتي بطامة!

فالمقصد الآن: إن هذا اللصق ما يأتي إلا من شخص أحسن أحواله أنه أمسك الكتاب والسنّة بيد وأمسك غيرهما بالأخرى، إذا ما كان انفلت الكتاب والسنّة بالكليّة من يده وذهب إلى غيرهما!

فالشاهد: إن كل ما يتصل بإصلاح النفس والمجتمع وما بعدهما لا يمكن أن يكون إلا من هذا الذي رضيه الله لنا، فيحصل الاستغناء.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

ثم يأتي الأمر الثاني لتعتصم بالكتاب والسنّة، وقد ذكره في الباب الأول: أن تعلم أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قد أُوتي جوامع الكلم.

أي أن القرآن جوامع الكلم، والسنّة جوامع الكلم، هذا الذي تعتقده ما فائدته؟ ماذا وراءه؟ ماذا تستفيد منه؟ تفهم أنه من أن نزل القرآن إلى أن تقوم الساعة، وكل ما تحتاجه موجود في الكتاب، هي نفس الكلمات ما تغيرت، ونفس السور، فمن أين أجد أنا في هذا القرن، كلامًا كان في القرون الأولى؟ ستجد؛ لأن القرآن وصفه: جوامع الكلم، ما معنى جوامع الكلم؟ كلام قليل، وراءه معانٍ غزيرة، فمتى ما قلبتها وجدت ما تريد فيها.

ماذا يحتاج هذا؟ يحتاج إلى جهد، يعني نحن أمام كسل، والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قد استعاذ من الكسل. فأي شيء تحتاجه، فكر جيدًا وابحث في القرآن، وستجده، إما تجده مطابقةً أو تجده بالالتزام، بكلام سهل: لو تريد -مثلًا- أن تبحث عن الأماني التي تخطر في القلب، وتريد أن تعلم ما ضابطها؟ كيف أصلحها؟ هل أُسأل عنها؟ هل أُحاسب عليها؟...ماذا تفعل؟ تفتح المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وتبحث عن كلمة أمنية، تبحث عنها فتجد أنها وردت أكثر من إحدى عشرة مرة، تقريبًا ثلاث عشرة مرة، وتبدأ تقرأ في القرآن من البقرة إلى النجم إلى الجمعة، فتجد كلمة أماني متكررة، إلى أن تصل فتجد أن الشيطان

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]، إلى أن تصل إلى أن المنافقين في أحد أوصافهم غرتهم الأماني، قال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾[2] إلى أن تصل إلى ما هي حقيقة هذه الأمنية التي تتمناها، فتضبط ما في قلبك، يعني حتى الأماني التي تمر بخاطرك مضبوطة في القرآن، لكن ماذا تحتاج منك؟ أن تفكر ماذا يهمك؟ ماذا ينقصك؟ ماذا تحتاج؟ فإما تجده بلفظه أو تجده بمعناه، فتحتاج المسألة إلى بذل جهد، لكن أن نكسل ونأخذ بكلام جاهز من أي مصدر كان، ولا نريد أن نجتهد، وهذا يعطيك دورة في تطوير النفس أو غيرها، فهذا خطأ!

المقصد: أن المعتصم مستغنٍ والمعتصم يعتقد في كتاب الله وسنّة الرسول أن فيهما جوامع الكلم، وهذا معناه أنك عندما تحتاج أمرًا، ستجده في كلام الله وكلام رسوله، فقط فكر جيدًا وابحث جيدًا ثم تعلم الطريقة التي تستخرج بها كلام الله -عزَّ وجلَّ-؛ ولذا أتى الباب الثاني مباشرة يقول لي: "كيف أكون على منهج من سلف؟" لأنه حتى فهمك للكتاب والسنّة لتكون معتصمًا، لا يكون وفق هواك، نحن في بداية الحرب علينا كنا نسمع من يقول: "إن الكتاب والسنّة وكتب العلماء الصفراء لا يوجد فيها ما نحتاجه، ونحن متطورون!" هذه أول الحرب، ثم

(١) النساء: ١٢٠.

(٢) الحديد: ١٤.

أتت الحرب من الداخل، يدخلون من الداخل ويتعلمون الكتاب والسنّة ويقولون لك: "لابد أن نجدد الخطاب الديني ونقرأ التراث بطريقة جديدة! لابد أن نفهم الآيات بكلام جديد!" ثم يتجرؤون ويقولون: "إن كان الرسول معنا الآن لقال كلامًا آخر!" كل هذا تطور في الطعن! من الخارج لم يفلح الطعن وأن يقولوا عن كتب أهل العلم: "إنها كتب صفراء!" بعد فترة شعر الناس أن هؤلاء يحاربونهم في دينهم، فزاد إقبالهم، فدخلوا في داخل الدين وقالوا: "ليس هذا المقصود بكلام الله وهذا ليس هذا المقصود بكلام رسوله!" وكل شخص يتفلسف! وسلاح في ذلك استعمال المتشابه من الآيات، قال الله -عزَّ وجلَّ- ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1] يعني سلاحهم كان المتشابه، يأخذون المتشابه ويلعبون على الناس، ثم الأبعد من ذلك أن يقولوا: "ليس هذا المراد! لماذا تفهم اليوم على فهم السلف الصالح؟! لماذا تفهم على فَهم الطبري؟! هؤلاء قوم انتهوا!" ثم يأتي مجهول ويُجابه الرجال العظماء ويقول: "هم رجال ونحن رجال!" وهو قد لا يعرف كيف يقرأ كلمتين، ولا يعرف اسم السورة التي يستشهد بها! ومع ذلك يرى أن له رأيًا! وكل هذا من يستقبله؟ نحن نستقبله، وفي أحيانٍ كثيرة نشعر أنه لم يؤثر فينا، لكنه دخل وجداننا ونحن لا نشعر! لماذا؟ بسبب عدم وجود مقاومة، لا

(١) آل عمران: ٧.

يوجد شيء يرده، لا توجد خطوط حمراء، وإذا كان الكبار من أبنائنا وجدوا مقاومة بسبب تربية آبائهم، فالصغار وقعوا في الفخ! ثم سهّلت عليهم أدوات الاتصال أن يتخفوا من وراء أهلهم، فيدخلون بأسماء مستعارة ويسبون الدين ويشككون فيه ويأخذون الشبهات ويضعونها، وأيضًا هناك جماعة حسبوا أنفسهم معهم حقًا، فدخلوا إلى أهل الشُبه يناقشونهم، فشبّهوا عليهم، فاختلطت عليهم الأمور، والسبب شيء واحد: عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة.

إذًا الأمر الثالث لنصل إلى الاعتصام: أن تفهم الكتاب والسنّة كما فهمها السلف الصالح.

ولذلك أتى في الباب الثاني قال: (بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ) يعني المعتصم ما يفهم الكتاب والسنّة كما يريد، بل المعتصم يفهم الكتاب والسنّة كما ورد من فهم السلف الصالح.

إلى أن وصلنا إلى الباب الذي فيه ضبط للمسألة، أنت تقول: "المطلوب أن أفهم الكتاب والسنّة، المطلوب أن أسير فيهما على منهج السلف"، نقول: "أيضًا احذر من شيء مهم" فأتى بالباب الثالث قال: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ) يعني عندما نقول: "تعلم الكتاب والسنّة" فهذا لا يعني أن تطلق الأمر لنفسك، وتسأل عن أي شيء يخطر في بالك، إنما مطلوب منك أن تسأل عما تحتاجه في إيمانك، يعني لا

تسأل عن شيء إلا ما يزيد إيمانك، ولا تترك الشيطان يأخذك في الأسئلة حتى تُشكك في خبر الرحمن! ولابد أن تكون عندك قواعد، من أهمها: أن الله الذي نعبده -سبحانه وتعالى- غيبٌ ووصفه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، وهو غيب وأدلة استحقاقه -سبحانه وتعالى- للربوبية و الألوهية وكمال الأسماء والصفات ظاهرة في كل مكان، يعني هذه المخلوقات كلها، مَن سمعت أنه يقول إنه فعلها؟! هل أحد من الخلق حولك قال إن خلق هذه البساتين العظيمة أو الجبال الخضراء أو السماء المرتفعة أو النجوم التي في صفحة السماء أو البحار؟! هل أحدٌ ادّعى ذلك؟! لكن الله أخبرنا -سبحانه وتعالى- أنه خالقٌ هذا كله.

فالناظر إلى هذا الأمر يقول: "اختباري في الدنيا أن أؤمن بالله لما أرى من آثار كمال صفاته، لكن لا أفكر في كيفية صفاته؛ لأنه خلق الإنسان على صفة وعلى حال تختلف عن الحيوان، وتختلف عن بقية المخلوقات"، هناك جمادات، نباتات، حيوانات هل صفاتهم متشابهة؟ لا، ليس فيهم صفات متشابهة، بل نفس الإنسان لو خرج خارج الكرة الأرضية، حتى وزنه يختلف؛ بسبب ما يقولون عنه (الجاذبية الأرضية)، وحتى سيره يختلف، يعني أنت في الأرض تسير على قدميك، لكن في خارج الكرة الأرضية، الإنسان يطير! أنت نفسك في الأرض هل تستطيع أن

(١) الشورى: ١١.

تطير؟ الجواب: لا، يعني لا تَقِس الخالق بقوانين وضعها -سبحانه وتعالى- في الأرض! ما يصح لك هذا، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ثم اعلم أنك بمجرد أن تريد أن تتعلم وتفهم، يأتيك الشيطان، يريد أن يخطفك، فيجعلك تسأل أسئلة لا داعي لها.

وكنا اللقاء الماضي وصلنا إلى الخطر العظيم: في الحديث أن القائل يقول: "هذا خلق الله وهذا خلق وهذا خلق الله" إلى أن يصل فيسأل: "من خلق الله؟!" وكنا اتفقنا هنا على أن الله خلقنا على فطرة لا تقبل هذا السؤال، لكن ما يسأل هذا السؤال إلا من خطفه الشيطان، بمعنى أن هذا يأتي من وسواس الشيطان، وملخص هذا الكلام:

إن الله -عزَّ وجلَّ- خلقنا على فطرة سوية فيها مجموعة مسلّمات، كل الناس العقلاء موجودة فيهم هذه المسلّمات، ومن أهم المسلّمات التي تفيدنا في هذا: أن كل شيء له أول وله آخر. ولا نقبل أبدًا أن يكون شيء ليس له أول ولا آخر، فتعلم أن للنهار أولًا وله آخرًا، وتعلم أن للّيل أولًا وله آخرًا، تعلم أن أبناءك لهم أول ولهم آخر، وهكذا، كل شيء له أول وله آخر، فكّر جيدًا وستجد هذه المسألة، والنفس الإنسانية ما تقبل أبدًا في شيء أن يكون بدأ من لا نهاية أو يبقى للانهاية في الدنيا.

فمعناه أن العبد يُسلّم في داخله أنه كلما بحث عن شيء، لابد أن يبحث عن أول الشيء، نفترض أنك تريد أن تفتح مؤسسة، فتسأل عن

أول الإجراءات التي تقوم بها؟ لا بد أن تسأل عن الأول، هذه فطرة خلق الله بها الخلق، فإذًا عندما يقول الإنسان: "هذا خلق الله، هذا خلق الله"، الشيطان يوحي له: "من خلق الله؟!"، حينئذ لا يمكن للعقل أن يقبل هذا، بل العقل يقبل أن هناك أولًا ليس قبله شيء، لابد أن يكون في كل شأن أولٌ ليس قبله شيء؛ ولذلك ابن عباس عندما أتى الرجل وقال له: "إن في قلبي كذا وكذا" قال له: "رُد على نفسك بقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[1]"، بمعنى أن عقلك إذا سلِم من الشيطان، يعرف أن الأشياء لا يمكن أن تبقى متسلسلة، لابد أن هناك شيئًا يقطعها، وفكروا في أي أمر في شأن الدنيا، لا يمكن أن يكون شيء متسلسل لا نهاية له؛ ولذلك أحد الأكذوبات الكبيرة التي دخلنا فيها من الفلسفة -فلسفة ديكارت-: "أن هناك شيئًا اسمه لا نهاية من الطرفين"، وهذا لا يمكن أن يكون في الحياة، إنما **الخلود** وصفٌ للجنة ووصفٌ للنار، أما هنا في الدنيا فلا يوجد شيء في الدنيا لا بداية له ولا نهاية، حتى الجنة الخبر عنها "أن الله خلقها" فلها بداية والنهاية هي التي نظنها في الخلود.

المقصد: أن العقل السليم البعيد عن الشيطان الرجيم ينقطع عن التفكير في الأمور التي تتصل بالتسلسل، يعني يدفع التسلسل لا بد، ما

(١) الحديد: ٢.

يقبل أبدًا أن تكون الأمور متسلسلة لا بداية لها، وهذه البداية تسمعها في الخبر، يقال لك: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الأول الذي ليس قبله شيء، إذًا تعرف أنه الأول.

بقي علينا في هذا الباب حديث:

• حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم- فِي حَرْثٍ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُم: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ، لَا يُسْمِعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ، فَقَامَ سَاعَةً يَنْظُرُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1].

← هذا آخر حديث في هذا الباب، أذكركم بعنوان الباب:

(بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ).

الآن هذا الموقف بين النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وبين اليهود، ما سبب سؤالهم؟ سبب سؤالهم: التعنت، معنى ذلك أنك عندما تريد أن تعتصم

(١) الإسراء: ٨٥.

بالكتاب والسنّة، وكنت صادقًا في الاعتصام، لا تسأل سؤالًا يكون مقصدك فيه التعنت، يعني ليس لك مصلحة تتصل بإيمانك، إنما تريد:

- إما أن تُظهر عجز الذي أمامك.
- أو تريد أن تبيّن أنك تعلم أو تفهم.

معنى ذلك أن السائل لا يُريد مصلحة علمية، إنما يريد إما إعجاز المسؤول -مَن يسأله- أو إظهار فضله على المسؤول، وعندما تتجه الأسئلة إلى مثل هذا، اعلم أن نفس السؤال يُسبّب نقص الإيمان! بمعنى أنه يصح لك أن تسأل من أجل أن تفهم، لكن ما يصح لك أن تسأل من أجل أن تتفلسف، ما يصح لك أن تسأل من أجل أن تتعنت، مثلًا تأتيك قصة أصحاب الكهف مختصرة، واضح فيها الغاية، فيفكر عقلك: كيف كانت أشكالهم؟! عندما استيقظوا من هذه النومة الطويلة، كيف كانت أحوالهم؟! ويبقى يسأل أسئلة ما تزيد في الإيمان شيئًا! فيُقال: هذه أسئلة تعنت، وهذه الأسئلة ما تزيد الإيمان أبدًا، إنما تنقصه.

المقصد: المتمسك بالكتاب والسنّة الذي يريد أن يتعلمهما عليه أن يقرأ كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ويسأل عنهما، لكن ما ضابط السؤال؟ يسأل في كل شيء يصلح السؤال فيه، ويسأل وغاية سؤاله أن يزداد إيمانه وليس غاية سؤاله أن يكشف عوار الناس، ليس غاية سؤاله أن يقول: "هؤلاء جماعة المشايخ لا يعلمون!" ليس غاية

سؤاله أن يبين أنه يفهم وغيره ما يفهم! كل هذا يُسبب أن ينقص إيمان السائل، وهذا الوصف ما هو إلا لليهود، فهم كانوا يعلمون جواب هذا السؤال، ومع ذلك يأتون يريدون أن يختبروا النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-!

هؤلاء النفر من اليهود لما مروا على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، قال بعضهم لبعض: "سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ"، وهم أهل كتاب ويعلمون هذا الحق، وما سألوا عنه إلا لإرادة إظهار حال للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يريدون أن يظهروه ناقصًا؛ ولذلك لما سألوا قال بعضهم: "لَا تَسْأَلُوهُ، لَا يُسْمِعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ!" أي: لكيلا يجيب عليكم إجابة تزيد في دلالة كونه رسولًا! وقد حصل وسألوا من أجل التعنت والتقليل من قيمة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فأتت الإجابة بالوحي تزيدهم دلالة على أنه رسول من عند الله.

فالمقصد: إن المؤمنين المتقين لا يقال لهم: "لا تسألوا" لأننا في الباب السابق، (بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ)، ذكرنا كلامًا لتابعيّ مهمًا جدًا، كلام ابن عون: "ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السنّة أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ."، يعني في الباب السابق قلنا: "سَلْ!"، في هذا الباب نقول: "اسأل سؤال يزيدك إيمانًا." وكنا قلنا: "الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فلا تسأل عن كيفية صفاته"، يعني عندما يقال لك: «يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلةٍ إلى

السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ»[1]. ما هو السؤال الذي تسأل عنه؟ إذا قلت: "كيف ينزل؟" فهذا تعدٍّ؛ لأنك لست بحاجة لأن تعلم كيف، لكن اسأل: "ماذا نستفيده من هذا النزول؟" يقال لك: هو ينادي -سبحانه وتعالى- مع غناه: «هلْ مِن مُسْتَغْفِرٍ؟ هلْ مِن تائِبٍ؟ هلْ مِن سائِلٍ؟ هلْ مِن داعٍ؟ حتَّى يَنْفَجِرَ الفَجْرُ.»[2]، هذا الذي تحتاج أن تعلمه، وتحتاج أن تعلم التفاصيل، ومتى يكون الثلث الأخير من الليل؟ وكيف أغتنمه وأيهما أفضل: أصلي أم أدعو؟ هذا الذي تحتاج أن تسأل عنه، أما كيف ينزل ربنا؟ هذا ليس شأنك! لأنه -سبحانه وتعالى- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فكيف تريد بعقلك الناقص أن تدرك كمال الكامل سبحانه وتعالى؟!

المقصد الآن: مطلوب منك أن تسأل، وعقلك محترم، وجاءت الشريعة من أجل أن يعقلك عقلك عن الخطأ، لكن لابد أولًا أن يعرف عقلك ما هو الصواب وما الخطأ؟

العقل -كما ذكرنا سابقًا- من العِقال، والعِقال هو: ما يضعونه على الفرس يلجمونها، يعني عندما يراد منها أن تقف يحركونه، وعندما يريدون منها أن تسرع يحركونه، لكن راكب الفرس يعرف إلى أي جهة يريد

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٥٨).

أن يتجه، يعلم أين الأخطار فيتوقف، يعلم المكان المناسب لأن يسير بسرعة فيسير، معنى ذلك أن عقولنا لابد أن تتغذى أولًا ما هو الصواب وما هو الخطأ؛ لتعقلنا ولتمنعنا، أما عندما يكون العقل سائرًا على الهوى وعلى ما يحب الإنسان، سينفلت، وسيأتي عند المهالك ويتركك تسقط، فالمقصد: لا نسأل إلا عمّا يزيدنا إيمانًا، وهؤلاء اليهود سألوا الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- عن الروح كما هو ظاهر في الحديث سؤال تعنت لسببين:

١- لأنهم يعلمون هم أهل الكتاب.

٢- قال بعضهم: "لَا تَسْأَلُوهُ، لَا يُسْمِعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ!".

يعني هم ما كانوا بحاجة للجواب، إنما سألوا تعنتًا، فجاءهم الجواب بعد الوحي، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

تأتي فائدة أخرى: هناك أمور في الحياة ليس المطلوب منك أن تعلم غير اسمها، غير وصفها، أما حقيقتها، فعقلك لا يستطيعه، وهذا القياس يُسهّل عليك الأمر الأعلى، يعني إن أتينا نسأل: "أيهما أقرب للإدراك، الروح التي بين جنبيك أم كيفية صفات الرب الكريم؟" على الأقل الروح بين جنبيك، لكن هل نستطيع أن ندرك حقيقة روحنا؟! كأنه يقال: "أنت يا عبد، لا تستطيع إدراك حقيقة روحك، وهي بين جنبيك

فكيف تريد أن تدرك كيفية صفات الله؟!" كيف يمكن أن تفكر في ذلك؟ روحك التي بين جنبيك ما تستطيع أن تصفها، يعني أنت تكون مركزًا وتريد أن تنزل الحرم، فلا تجد نفسك إلا وقد ذهبت روحك، نمت! ذهبت الروح! فهل تستطيع أن تردها؟! لا تستطيع، خرجت روحك بالنوم، فمعنى ذلك أن روحنا التي بين جنبينا، حتى بقاؤها بين الجنبين أو خروجها من جنبينا ووصفها، وتصوّرها، كل هذا نحن عاجزون عنه، ولسنا محتاجين له.

الحقيقة: ما من شيء أُخفي علينا، إلا ونحن لا نحتاجه، ويبقى آية من آيات الله؛ لتعلم أنه -سبحانه وتعالى- الواحد القهار؛ ولذلك يوم القيامة يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1]، الذي قهر العباد بالموت، سواء الموتة الصغرى أو الموتة الكبرى من الأشياء القاهرة، بدليل ما نعيشه، تكون مجتهدًا وتريد أن تنجز أعمالك، فلا تجد إلا أنك نمت! ذهبت هذه الروح، ويكون الإنسان مجتهدًا ويريد أن يكمل حياته، ثم يُقهر فيأتيه الموت، فالملكُ اليوم لله الواحد القهار.

المقصد من موضوع السؤال: أن من عَلِم أنه لا يستطيع أن يدرك روحه التي بين جنبيه، لا يستطيع أن يعلم كيفيتها، ماهيتها، ما هي

(١) غافر: ١٦.

بالضبط، لا يفكر إذًا في كيف صفات الله، ولا يتكلم عن مسألة التسلسل، وليعلم أنه كما لا يعلم روحه، فكذلك لا يستطيع أن يعلم كيفية صفات الرب سبحانه وتعالى. ماذا يفعل في عقله إذًا؟ يضع عقله في المكان المناسب، ونحن نعيد على أنفسنا هذه المسألة لكن من موطن واقعي، الآن كلنا نستعمل هذه الأدوات الحديثة التي توصلنا بالناس، سماعًا وكتابة، ومع ذلك كلنا تقريبًا الآن لا نستطيع أن نعلم بالتفصيل كيفية حدوث انتقال الكلمات ولا انتقال الصوت ولا أي شيء من ذلك! لكن السؤال: هل شغلنا أنفسنا في يوم من الأيام بمعرفة كيفية انتقال الكلمات في الرسائل أو انتقال الصوت في المكالمات؟ ما شغلنا أنفسنا أبدًا، لماذا لم نشغل أنفسنا؟ لأنه لا يوجد شيطان يقول لك: "ابحث"، ويمكن إذا بحثت تزداد ثقافة، لكن الشيطان ما يقول لك ذلك، ولا يرشدك له، ولا يجعله أصلًا شيئًا يهمك، إنما يجعل الشيء الغيبيّ هو الذي يهمك؛ بسبب كيده ووسواسه، وهو ليس له على المسلمين المؤمنين إلا الوسواس؛ ولذلك في سورة إبراهيم، حينما يخطب في أهل النار يقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾[1]، هذه

(١) إبراهيم: ٢٢.

مشكلتكم: أنكم لما دعوتكم، استجبتم! وكان المفترض أن يردكم الإيمان عن أن تستجيبوا.

إلى هنا علمنا:

- أن القرآن والسنّة فيهما جوامع الكلم.
- وأن المطلوب منك أن تتعلمهما وتقتدي بالنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وصحابته في فهمهما.
- وأنك عندما تبحث فيهما وتتعلم، اسأل السؤال الصحيح، ليس ممنوع السؤال بنفسه لكن الممنوع السؤال الذي لا يزيدك إيمانًا.

الآن سنأتي إلى الباب التالي:

بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِأَفْعَالِ النَّبِيِّ-صلَّى الله عليه وسلَّم -

•حدثنا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: اتَّخَذَ النَّبِيُّ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ: "إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ" فَنَبَذَهُ وَقَالَ: "إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا"، فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ.

← اسم الباب (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِأَفْعَالِ النَّبِيِّ-صلَّى الله عليه وسلَّم-)، وفي الباب صورة كيف كان السلف الصالح -الصحابة الكرام، هم سلفنا الصالح- يسارعون في الاقتداء.

فهذا الباب يحمل هذا الحديث الذي فيه أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في أول الأمر قبل تحريم الذهب، اتخذ خاتمًا من ذهب، وهذا الخاتم اتخذه النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ليس رفاهية، إنما اتخذه ليختم به عندما يكتب رسائل إلى الأقوام، فيختم بخاتمه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، أي أن هناك مصلحة. ثم أتى حكم تحريم الذهب، فقال لهم: (إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ) يعني أني فعلت هذا الفعل(فَنَبَذَهُ) أي: أخرجه وألقاه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقال: (إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا) قال عن نفسه إنه لن يلبسه أبدًا، ماذا حصل؟ (فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ.)

الشاهد من جهتين:

- (اتَّخَذَ النَّبِيُّ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ) ، (فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ).
- ألقى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الخاتم (فَنَبَذَهُ)، (فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ.).

أي أن القوم يرون النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قائدًا لهم، وأن ما يفعله إنما هو الحق والصواب؛ ولذا المعتصم بالكتاب والسنّة عيناه ممتلئتان من سنّة النبي الكريم وقلبه مطمئنٌ لسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، محبٌ للتشبه بها، ونضرب مثالًا لنتصور: الآن عندما نتكلم عن

الأخلاق -وهذه الأخلاق هي مشكلة الناس، الناس لا يفكرون في عقيدتهم الخطيرة بقدر ما يفكرون في الأخلاق؛ لأن المصالح دائرة حول الأخلاق!- وترى نفسك تعتني بأن تتخلّق لتكون راقيًا، من الناس الذين يتعاملون بِرُقيّ، هذا حسن وخير وبركة، لكن انظر عندما تمارس الخلق الحسن لتكون من أقرب الناس مجلسًا للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يوم القيامة، وفي الحديث: «إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي في الآخرةِ محاسنُكم أخلاقًا»[1] وانظر للفارق الشاسع في مشاعرك وفي تفكيرك، يعني تفكر أن تصدق أو تَفِي أو تحسن؛ لأن هذه من الأخلاق الجيدة فقط إطلاقًا، والمصيبة الأكبر أن تتخلق بالأخلاق الحسنة حتى يمدحك أهل الكفر والباطل! اترك هذه الحالة وارجع للأول، الذي يفكر أن الإنسان الراقي المؤدب، هو من يتكلم كلامًا جيدًا، ويُلقي السلام. نرجو أن يؤجَر، لكن هذه حال مختلفة تمامًا عن حال مَن يفكر في مجلس النبي يوم القيامة، وكيف أن هناك أناسًا قريبين من النبي، وهناك أناسًا بعيدين عن النبي، من يفكر في هذا، يسلك المسلك الحسن، ويقرأ النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ماذا كان يفعل، ويفعل المسلك الحسن، وقلبه يريد من الله أن يقبله، ويكون جزاؤه أن يكون في مجلس النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، من المؤكد أن الفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض! والسبب: أن الدافع لمن يريد أن

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٣٢).

يكون في مجلس النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، سيجعله لا يفكر في ردّ فعل الناس، هو لا يفكر الآن في حال الناس، تأدبوا أو لا، هو عينه على المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- ومجلسه يوم القيامة، فهم تأدبوا، أو ما تأدبوا، ردوا السلام، أو ما ردوا، هذا حالهم، لكن أنا حالي أن أفعل أفعالًا وعيني ترى مجلس النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وأطمع في الجلوس معه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهذه الأمنية بنفسها تدل على سمو الإنسان، يعني يفكر في السمو، لا يفكر في الدنيا، أو أن الناس يرضون عنه ويعجبون به، ويقولون عنه: "ما شاء الله مؤدب، متربٍ!" نحن نخاف في هذا الموقف أن يقال لنا: "فعلتم وفعلتم من أجل أي شيء، وقد قيل عنكم إنكم مؤدبون، فلا أجر لكم" انتهى الأمر وأخذتم حقكم في الدنيا!

لكن الذي يرى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أمام عينيه، يعني يرى امتثال سنّته طريقًا للجلوس في مجلسه يوم القيامة، سيجد نفسه يفعل هذا في السراء والضراء، سواءً أحسن الناس أو أساؤوا، تعاملوا معه بما يجب أو لم يتعاملوا، والحقيقة أن الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني خذ من أخلاق الناس ما عفت عنه أخلاقهم، اقبل ما يأتي منهم! فهذا الأمر أُمر به النبي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ﴾[1] ، وكان هذا المسلك كما درسنا في أول الكتاب، مسلك عمر -رضي الله عنه-، لما دخل عليه الرجل وأساء أدبه عليه، فذكّره الصحابي قال له: (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ.)

لماذا لم يتعداها عمر -رضي الله عنه-؟ لأن عينه على مسلك النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وعلى أمر الله -عزَّ وجلَّ-.

المقصد: أن مَن يريد أن يعتصم بالكتاب والسنّة

- لابد أن يتعلم الكتاب والسنّة.
- ويسأل عنهما.
- ولا يتعدّى في السؤال عنهما إلى ما لا يجب السؤال عنه.
- والأمر الذي قررناه في الباب الرابع: أن عليه أن ينظر للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- على أنه المثل الأعلى ويكتفي به مثلًا.

(١) الأعراف: ٢٠٠.

ونعيد على أنفسنا دائمًا: لابد أن نكتفي بالنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وصحابته الكرام، يعني لا تمرر على خاطرك أي شخص من الناس أبدًا، غير هؤلاء الذين سلكوا المسلك، النبي ومن سلك مسلكه، أما أن تأتي من هنا و من هنا، فهذا الخليط هو الذي يضر قلب المؤمن؛ لأنه الله وصف كل الكفار مهما أعجبوك، بأنهم: ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، فلا يمكن للمؤمن ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أن يرى شر البرية، خير البرية، هذا انقلاب! الله وصفهم بأنهم: ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، فلا تمدحهم أبدًا، ولا تنظر إلى مسلكهم. ونعيد على أنفسنا: نحن نغضّ طرفنا عنهم ولا نراهم شيئًا ونرى ما وصفه الله بهم، في كل شأن يتصل بتزكية النفس وإعمارها وتزكية المجتمع وإصلاحه وتربية أبنائنا، أما إعمار الأرض فهم مثل الخدم، يخدمون أهل الإسلام قبلما يخدمون أنفسهم، وخصوصًا أننا نرى ما نراه من رفعة شأننا بما جعل الله -عزَّ وجلَّ- من حاجاتهم عندنا وكيف أن لدينا المال ونعتبر أكبر الأسواق لهم، طبعا دائمًا تُنظر للمسألة بنظرة عكسية، يعني أننا لا ننتج! لا بأس، لكن انظر لها بنظرة أخرى: الله -عزَّ وجلَّ- رفع مكانتنا بأن جعل عندنا الأموال، وجعلهم يحتاجوننا، ثم هم خدم للدنيا، ونحن تجتمع لنا الدنيا والآخرة، ومن أمثلة ذلك: وجود كثير من الموجودين في هذا المجلس وهم ليسوا من أهل هذه البلاد المباركة، لكنهم أتوا بطائراتهم، ووصلوا إلى هنا بأجهزتهم، فهم صنعوها وبذلوا جهودهم، خدمة لديننا، وهذا معناه

أن العبد ينظر لمثل هذا، على أن الله قد امتنّ علينا بأن أعطانا ما يصلح به شأن ديننا ودنيانا، وجعلهم خدمًا للدنيا.

السلام عليكم ورحمة الله.

اللقاء التاسع

مراجعة الأبواب السابقة

بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه كما تفضّل علينا أن نجتمع في هذا المكان المبارك، أن يقبل منا أعمالنا جميعها وخاصة اجتماعنا حول سنّة نبيّه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وقد وعد النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في الحديث، خبر عن ربه: «وَما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عليهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِنْدَهُ»[1]، وهذا كله ما نرغبه من وراء حضور مجالس الذكر، ومن هذا المرغوب وأهمه: أن يزيد إيماننا بتدارسنا لكلام الله، وكلام رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

كنا نتدارس كتاب الاعتصام في الكتاب والسنّة من صحيح البخاري، نراجع سريعًا ما تدارسنا، ونبتدئ في الباب الجديد.

نبدأ بالكلام حول كتاب صحيح البخاري، هذا الكتاب من منّة الله على هذه الأمة، بل من دلائل أن الله حفظ الدين، فإنه كما هو معلوم في كتاب الله إن بدأنا من سورة البقرة وسمعنا عن إبراهيم -عليه السلام-، أنه دعا الله بعد بنائه للبيت، قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وعندما تقرأ في تفسير أهل العلم، تجدهم يقولون: "الكتاب يعني القرآن، والحكمة تعني: السنّة، ويزكيهم أي: أنهم بعدما يسمعون الكتاب ويفهمون سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- تزكو قلوبهم"، تزكو بمعنى: يدخل الإيمان إلى قلوبهم، فيُخرج فسادها ويجعل مكانه الصالح. وهذا واضح جدًا في آية سورة الرعد.

تسمع هذا في دعاء إبراهيم -عليه السلام-، ثم بعد أقل من خمسين آية في سورة البقرة، في الآيات التي فيها خبر عن تحويل القبلة، بعد أن امتن الله على رسوله بتحويل القبلة، يذكره بمنّة قبلها وهي: أنه استجاب لإبراهيم -عليه السلام- فأرسل رسولًا من أهل هذه الدار، وأنزل عليه الكتاب، وعلّمه الحكمة، معنى ذلك أن الله أرسل رسوله ومعه أمرين: الكتاب والحكمة، الكتاب والحكمة يمثلان الدين الذي جاء به النبي -

صلَّى الله عليه وسلَّم-، والنتيجة: أنك تزكي نفسك بالكتاب والحكمة، وعندما تسمع الخبر بأن الله أنزل الذكر وحفظه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ماذا تنتظر؟ إن كنت على يقين أنه كلام رب العالمين، وقال لك إنه أنزل الذكر وحفظه، والذكر عبارة عن الكتاب والحكمة، إذًا المحفوظ: كتاب الله وسنّة رسوله. وهذا بخبر الله؛ لأن الآية ما قالت: (إنا نحن نزلنا القرآن)، بل قال الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾.

معنى ذلك أن الله أنزل الذكر الذي هو الكتاب والحكمة -السنّة-، أنزلهما وأيضًا حفظهما، وكان الحفظ للكتاب له صورة مختلفة عن حفظ السنّة، وكان حفظ الكتاب في زمن يسبق حفظ السنّة، لكن في النهاية النتيجة: أن الاثنين حُفظا، والكتاب حُفظ في أول الأمر، ثم حُفظت السنّة، وحِفظ السنّة بنفسه آية من آيات نبوّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لأن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فيما صحّ عنه أنه قال: «لو كان الإيمانُ عند الثُّرَيَّا، لتناولَه رجالٌ من فارسٍ»[2]، قال أهل العلم: "وتحقيقه أن البخاري ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من البلد التي ذكرها النبي" والإيمان بمعنى: العلم.

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٧).

الشاهد: أن هذا الدين محفوظٌ كتابه وسنّة نبيّه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وأي طعن في حفظ السنّة، إنما هو طعن في الدين، ولا يطعن على حفظ السنّة سواء في صحيح البخاري أو مسلم، إلا من تابع الفلسفة، من يتابع الفلسفة، انتظر منه أن يطعن في السنّة، ومن يريد أن يَسلم دينه، لابد أن يطرح الفلسفة وراءه، ويضع أمامه كلام الله وكلام رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

والطعن في سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يشبه الطعن في صحابة رسول الله، فتجدهم يقولون: "أبو هريرة كيف حفظ كل هذه الأحاديث؟ ابن عباس كيف نقل هذا كله؟" وهذا ما يقوله إلا جاهلًا بالعرب وبدعوة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وجاهلًا بدين الله، وإلا فالعرب أحفظ الناس في التاريخ، فهم أقواهم لغة وأصفاهم ذهنًا، ومعلوم نقلهم للأشعار ومعلوم أحوالهم، فمن لا يعرفهم هو الذي يطعن فيهم.

الشاهد: أن الاستشراق عندما مدّ يده للإسلام، أفرز مجموعة شُبه، عندما يأتي مَن بعدهم، أهلنا الذين ينطقون بلساننا ويتركون تعلم الكتاب والسنّة ويتعلمون من مثل هذه الأمور، أول أمر سيحصل لهم: أن كل شُبة طرحوها ستقع في قلوبهم! ثم يخرجون باسم أنهم من أهل الدين، فيفرزوها علينا! فيبقى يطعن لك في سنّة النبي، يطعن في الصحابة...إلى أن يصل في نهاية الأمر أن يطعن في دين الله؛ ولذا من

الأمور التي نستطيع أن نجيب عليها اليوم بوضوح، والواقع يشهد عليها: أنه لماذا في بلاد المسلمين يأتي مَن يُنكر رب العالمين ويقع في الإلحاد، وهو من مجتمع كله يعترف بدين الله ويرى الناس يصلون ويصومون؟! كيف يصل للإلحاد إلا ومبدأ المسألة أنه سمع من هذا شُبهًا، ومن هذا طعنًا، ومن ذاك غمزًا، ومن هذا تقليلًا من مقام النبوة، إلى أن انتهى الأمر أن يدخل في الشك! سمع أن الشك يسبق اليقين، كل هذا جُمع على هؤلاء الشباب، بدون أن تحصل لهم حصانة، فكانت النتيجة: أن تقرأ اليوم عمن يطعن في دين الله! خصوصًا مع وجود وسائل الإعلام السهلة التي تجعلهم يختبؤون ورائها؛ لأنهم لا يستطيعون أن يصرحوا أمام عائلتهم بأنهم يطعنون في ذات الله! لكن وراء الأسماء المستعارة يفعل أحدهم ما يشاء! وهذا كله حصاد الفلسفة، وكله حصاد عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة.

لذلك كان من الواجب اليوم: أن أكثر ما نهتم به: مناقشة مسألة الاعتصام بالكتاب والسنّة.

أسباب مناقشة مسألة الاعتصام بالكتاب والسنّة:

السبب الأول: حالتنا نحن؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- لما أنزل كتابه وأرسل رسوله، وصف النبي الكتاب بأنه الحبل المتين، وفي بعض النصوص أن طرف كتاب الله بيد الخلق وطرفه بيد الله، قال رسول الله: «فإنَّ هذا

القرآنَ سبَبٌ طرَفُه بيدِ اللهِ وطرَفُه بأيديكم فتمسَّكوا به فإنَّكم لنْ تضِلُّوا ولن تهلِكوا بعدَه أبدًا»، فعندما تسمع عن حبل مُدّ لك من السماء، تعلم أن الذي يُمدّ له حبل، هو الذي يُخاف عليه الغرق، وحتى لا يغرق ماذا يفعل؟ يتمسّك بالحبل من أجل ألا يغرق. إذًا كتاب الله وسنّة النبي بالنسبة لحياتنا على الإطلاق -إن تصورناها جيدًا- ستكون الحبل الذي مدّه الله ونحن نعتصم ونتمسك به، معنى ذلك أننا لابد أن نبدأ بشعور أننا في بحرٍ لجّيّ من الفتن وها نحن نعرف هذا ونشعر به، وطوال الوقت نقول: "الفتن والتلفاز والأجهزة!" لكن هل تستطيع أن تقول لله إنه في وسط هذه الفتن، ما مدّ لنا حبلًا ننجّي أنفسنا به؟! خصوصًا ونحن اليوم على قدر وجود فتن، على قدر ما سَهُلت وسائل النجاة! لأن نفس الجهاز هذا الذي تسمع به الباطل، تستطيع أن تسمع به الحق، فمعنى ذلك أنه كما أن المنكرات عظيمة والفتن كثيرة وقريبة وسهلة، كذلك الحق يسيرٌ، بقي أن تعتصم بالكتاب والسنّة.

إذًا الذي يجعلنا نناقش الاعتصام بالكتاب والسنّة لأنفسنا أولًا: أننا نشعر بالأمواج المتلاطمة حولنا، ونرى الناس يكونون معنا على الطريق مصلين وصائمين، وفي الصباح يتحولون لأناس آخرين، تفتنهم الدنيا، يفتنهم المال، يخسرون وتجد دينهم ضاع، أو يكسبون وتجدهم دخلوا في الترف وتركوا دين الله، فكل هذه الفتن تجعلك تقول: "لأجل أن أنجو،

لابد أن أعتصم بالكتاب والسنّة"، هذا لنا خاصة، ثم عندما ننظر في المجتمع ونريد أن نُشّخص كل الأحوال التي تعتبر شاذة تمامًا كحالتي الإلحاد وحالة الخروج، يعني "داعش" وغيرها، وجدنا منهم تطرفًا غير معهود، سهولة في القتل، سهولة في التعذيب، تطرف غير مسبوق! ومن جهة أخرى الإلحاد والتعدي على الذات الإلهية، وسبّ النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- كل هذا تطرف، من أين يأتي كل هذا التطرف من الطرفين؟ بسبب واحد، وهو: عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة.

إذًا لكي أنقذ نفسي -كشخص- من كل الفتن المتلاطمة القريبة التي حولي: كفتنة المال، الزوج، الأبناء، تقلب نفسي عليّ، تقدم العمر. ونحن نتقدم في العمر، قد تُصبح التجارب الماضية مردودها سيء علينا، نمر بتجارب كثيرة سيئة، فيأتي بعض الناس وتحصل لهم حالة من الإحباط، تجعلهم حتى دين الله لا يتمسّكون به! ولأمنع نفسي من كل هذه الانقلابات، لابد من الاعتصام بالكتاب والسنّة.

السبب الثاني: لأجل أن ينجو مجتمعي، أبنائي، الحال التي حولي، هذه حالات الشذوذ الفكري التي من الجهتين، وطبعًا كل هذا الشذوذ الفكري دخل بسبب: عدم الاعتصام، فمن ثمّ الحل: الاعتصام بالكتاب والسنّة.

السبب الثالث الذي يجعلنا لابد أن نناقش الاعتصام بالكتاب والسنّة: ما يخرج اليوم من أطروحات دينية -وهذا أكثر أمر مخيف- يعني

الذين يخرجون في الإعلام -ولا أقصد الكل- يتكلمون عن الدين ولا توجد عليهم مظاهر الدين، إنما يتفلسفون، فاندمجت الفلسفة في الدين، فأصبح كل شيء يُفلسف لدرجة أنك لا تسمع آية ولا حديثًا في كلام شخص يتكلم عن الدين، لمدة نصف ساعة! ولا تسمع دليلًا أو اثنين، وإن قال دليلًا تسمعه وقد لَوِيَ عنقه، وفهمه كما يريد، وتكلم فيه كما يريد، والفلسفة أخطر شيء على أمة الإسلام، وما دخلت أمة الإسلام في مراحل الحضيض، الضعف الشديد -واقرؤوا التاريخ- إلا عندما فُسّر الدين بالفلسفة، واليوم تفسير الدين بالفلسفة أمر سهل جدًا، يعني يأتي أحدهم يريد أن يفهمك جنات النعيم، التي ذكرها الله في القرآن، فبدلًا من أن يأخذ آيات سورة الإنسان أو غيرها، يشطّ بأفكاره ويقول: "هذا كذا وهندسيًا ثبت...!" والدنيا ليست بشيء في الآخرة، والدنيا ليس فيها مقاييس الآخرة والآخرة لا تقاس بمقاييس الدنيا، فكيف تتكلم بهذه الطريقة؟! صِف الجنة كما وصفها الله ووصفها نبيّه -صلَّى الله عليه وسلّم-، وتكلّم عن الغيب كما أتت الأخبار؛ لأن المطلوب منّا ليس الاختراع، بل المطلوب منّا المتابعة؛ ولذا هناك قصة تجعلنا نعتصم بالكتاب والسّنة، وهي قصة تعظيم العقل، كل شخص يقول: "لديّ عقلٌ أفكر به"، ودائما مشكلة العقل: أنهم يضعون العقل أمام النص! هذا بكلام مختصر، وسيظهر الأمر أكثر ونحن نناقش كتاب الاعتصام.

العقل ما معناه؟ العرب تقول: "عَقِلَ" بعني: منع، وقد أتت كلمة العقل من العِقال الذي يمنعون به الدابة عن الحركة أو يسمحون لها بالحركة بواسطته، يوجهونها يمينًا أو يسارًا، إذًا العقل يمنع ويوجه، لكنه عبارة عن أداة لابد أن يتحكم بها أحد، كالذي يركب خيلًا أو إبلًا ومعه عقال يتحكم به في الدابة ويوجهها يمينًا ويسارًا، إذًا العقل هو الذي يوجِّه بعدما يوجَّه. من يوجهه -وهو الراكب على الخيل أو الإبل- يعلم أن هذا خطرٌ فيبتعد عنه، ويعلم أن هذا خيرٌ فيقترب منه، عقلنا الذي نعقل به، عندما يأتي الخطر -وقد عرف أنه خطرٌ من الكتاب والسنّة- ماذا يفعل بنا؟ يعقِلنا، عقلنا عندما يأتي الخير، الذي علم من الكتاب والسنّة أنه خير يدفعنا، لكن بدون الكتاب والسنّة هذا العقل لا يمكن أن يتحرك، ودائمًا كرروا على أنفسكم هذا المثل؛ لتتصوروا أنه لا يمكن أن تكون هناك معارضة بين العقل والكتاب والسنّة؛ لأن العقل لا يستطيع أن يعقل الخطأ والصواب، إلا عندما تعلمه، تقول له: "هذا خطأ، وهذا صواب"، وانظر في حياتنا، ستجد أن الطفل الصغير يأتي ومعه مبدأ العقل، الذي نسميه عقل الإدراك، فكلما تعلم الطفل الصغير، كلما استطاع أن يمنع نفسه، فتجد الطفل الصغير لا يعرف هل هذا الطعام حارًا أو باردًا، فيهجم عليه، لكن عندما يتعلم، عقله يكفّه، لكن الحياة لا تحتمل أن أجرب كل التجارب، فيأتي الشرع يقول: "هذا خطر وهذا

ممنوع"، فيمنعنا عقلنا عندما يرى الخطر، العقل يمنعك، والمجنون هو الذي تعلّمه فلا يفهم. إذًا العقل لا يعارض الشريعة، بل العقل مادة عقله: الشريعة، يعرف الخطأ من الصواب بالشريعة، ولا يعارض الشريعة! وهذا كله سببه الفلسفة، هي التي صنعت من العقل منتجًا للفكر، وجعلته يعارض الشريعة، والحقيقة: أن العقل يفهم على قدر ما تعلّمه فإن علمته الحق من الشريعة تعلّم، وإن لم تعلّمه بقي على الباطل.

هذا النقاش كان لمقدمة الكتاب ثم سنبدأ بمراجعة ما سبق دراسته، كنا بدأ ببداية كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، ذكرنا أن البخاري من عادته أن يسمي الكتاب، ثم تحت الكتاب يضع أبوابًا، فاسم كتابه الاعتصام بالكتاب والسنّة، الباب الأول: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ").

نبدأ بقراءة المقدمة سريعًا، قال البخاري: (كتابُ الاعتِصَام بِالكِتابِ وَالسنّة) ثم أورد هذا الحديث الذي هو بين رجلٍ من اليهود وعمر -رضي الله عنه- (قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ).

ماذا يريد أن يقول اليهودي لعمر؟ أن هناك آية إن نزلت علينا معشر اليهود لاتخذناها عيدًا، لماذا؟ لأن الخبر الذي في الآية يدل على تمام النعمة، ماذا قيل في الخبر؟ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذه كلها تعتبر مبشرات، أمر يُفرح به، إن الدين كمُل، وإن النعمة تمت وإن الله رضي بالدين، من يسمع هذه الأخبار، المفترض أن يصبح فرحه بالدين فرحًا عظيمًا؛ لأن هذا معناه أن أي شيء يحتاجه، سيكون موجودًا في الدين، سواءٌ القرآن أو السنّة كما اتفقنا، ماذا رد عمر ابن الخطاب عليه؟ قال: (إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ) كأنه يقول: نعم، قد اتخذناها عيدًا، كأن اجتمع فيها عيدان، فإنها نزلت في يوم عرفة، الذي هو بالنسبة لأهل الديار عيد، وبالنسبة للحجاج صبيحته عيد، ويوم جمعة، الذي هو يوم عيد للمسلمين، فكأن عمر ابن الخطاب يقول له: "نعم، قد اتخذناها عيدًا ونحن بمنّة الله أفرح بها منكم"، ما هي منّة الله؟ إكمال الدين.

إذًا هذه أحد العبادات المهمة، المغفول عنها، والتي نتيجتها: العتصام بالكتاب والسنّة، وهي: الفرح بإكمال الدين، والله -عزَّ وجلَّ- في سورة يونس أخبر بهذا الأمر الذي أُمرنا به، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: الدنيا، و

﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ المقصود به: كمال دين الله. فهذا فضل الله ورحمته، ومن العبادات فيه: الفرح. والعمل بهذا الفرح معناه: الاكتفاء بالكتاب والسنّة. يعني الذي يقول لربه: "أنا متيقنٌ بهذه الآية، وأعلم أن الدين كمُل، وأعلم أنك مَننت علينا وأتممت علينا المنّة، وأرضى بما رضيت يا ربنا به" المفترض أن يكون قلبه متعلقًا بالكتاب والسنّة، معتصمًا بهما، مستغنيًا بهما عن غيرهما، لكن عندما ننظر في واقع علاقتنا بهذه الآية، نجد أننا رغم أننا نقول ونعتقد أن اليوم الدين كامل، وأن الله أتمّ النعمة وأنه رضي الإسلام دينًا، ونحن نقول: "رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلّم- رسولًا" لكن تحقيق هذا يحتاج إلى مشوار طويل في تفكيرنا، أن كل أمر أفكر فيه، لابد أن أعرضه على الكتاب والسنّة، وأستغني بهما؛ ولذلك ورد في الحديث «ليسَ مِنّا مَن لم يَتغَنَّ بالقرآنِ»، أي: يستغني به عن غيره، يعني عندما تفكر في أي أمر يخصك، أو يخص المجتمع، يخص التربية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو العلاقات الإنسانية، لابد أن يكون في القلب استغناء بالكتاب والسنّة عن غيرهما، وكل واحد منّا في مكانه، كل واحد منّا المفترض في مكانه أن يشعر بهذا الاستغناء، ولابد أن تتحول المسألة إلى صورة عميلة، يعني نحن نقول: "إننا نستغني بالقرآن" لكن عندما نأتي نتكلم عن التربية، نجد الناس قد نزعوا من فلسفات الشرق والغرب النظريات التربوية!

عندما نأتي نتكلم عن إصلاح النفس، نجد الناس قد نزعوا من الغرب والشرق أفكار الإصلاح النفسي! حتى عندما نتكلم عن الطمأنينة النفسية التي واضح فيها أنها تكون بذكر الله، نجد الناس قد نزعوا من الغرب والشرق أفكارًا ليطمئنوا!

فحقيقة هذا يعني أننا ما شعرنا ولا فرحنا بكمال الدين ولا بإتمام النعمة ولا رضينا بما رضي الله، عمليًا ما حصل هذا! وهذا الأمر واضح فيما نراه اليوم من دورات كثيرة تدور حول برمجة النفس، حول إصلاح النفس، حول تزكية النفس، حول تطوير النفس، هذا كله نُزعت أفكاره من الشرق والغرب! وأبسط مثال: برامج تعليم الصغار -رياض أطفال-، من المبادئ في رياض الأطفال -وهو مشهور عند معلمي هذه المرحلة-: أن الطفل فب هذه المرحلة لا يُناقش في المسائل التي تتصل بالغيب أبدًا. بناءً على أنه لا يستطيع أن يعرف إلا المحسوس! وهذه الفكرة دخلت واستقرت في نفوس المسلمين! وكأنهم لا يعلمون أن الله لما خلق هذا المخلوق، خلقه ومعه فطرة سوية، يولد من بطن أمه ومعه الفطرة السوية، وهذه الفطرة السوية تكبر وتتحسن مع تعليمها، ويبقى هذا الطفل إلى سن سبع سنوات، وهو يستعد لمعرفة الله العظيم، وكلما خاطبته بالكلام الصحيح، كلما نما عقله وفطرته على الكلام الصحيح، وأنت ترى أمرًا عجيبًا، هم يقولون لك في مدارس رياض الأطفال: " لا

تعلموه إلا المحسوس" ، وعندما يعود للبيت ويشاهد أفلام الكرتون التي ينتجونها، لا ترى إلا الأمور الخيالية التي ليس لها صلة بأرض الواقع! هذا تناقض! لأن هذا إن كان عنده خيال، إذًا يستطيع أن يؤمن بالغيب، وهو أصلا تُرك هذا العمر كله لم يُكلّف -إنما كُلّف به والديه- من أجل أن ينمى فيه الإيمان بالغيب، وتخاطبه فيفهم -لأنه يفهم الخطاب و يرد الجواب-. هذا مجرد مثال لنتصور كيف أن أفكار الغرب والشرق غزتنا ونحن نقول: "رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- نبيًا ورسولًا"، لكن في الواقع هذا الرضا لم يأتِ بنتيجة! ومن أجل ذلك عندما نصف النفس الإنسانية، نجد الله -عزَّ وجلَّ- في مواطن كثيرة في كتاب الله يصف النفس، يصفها بأنها شحيحة، في الخير تفعل كذا، في الشر تفعل كذا، عندما تؤخذ منها النعمة تفعل كذا، نترك كل هذه الأوصاف في كتاب الله التي أتت في أكثر من تسعين موطنًا في كتاب الله، وننتظر من الشرق والغرب أن يصفوا لنا نفوسنا التي بين جنبينا! ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

فهذا الكلام قبل أن يكون جهودًا من غيرنا، لابد أن تكون جهودًا من أنفسنا، ونحن نقرأ القرآن، بمجرد قراءتنا نصل لهذه المفاهيم ولا تحتاج المسألة إلى فلسفة، يعني في سورة هود تقرأ كيف يصف الله الإنسان إذا

(١) الملك: ١٤.

مسّه الخير، وكيف يصفه إذا مسّه الشر، ثم قِس على نفسك وتنبّه، وهذه النفس التي تفهم أنها تفعل كذا في الخير وكذا في الشر، تستطيع بهذا المنظور أن تتخيل نفوس الناس حولك، ونفوس من تربيهم، ونفوس من توجههم، فأنت لست بحاجة إلا أن تضع رأسك في كتاب الله، وتفهم ما يقول الله، وما يقول رسول الله، وستجد من الخير الكثير الذي يصلح نفسك ويصلح الآخرين، ولا تحتاج أبدًا أن تستورد من العُمى؛ لأن البصير هو الذي يرى ما أراه الله، والأعمى الذي يكفر بالله، فكيف أنت يا بصير، الله أعطاك الهدى والنور والشفاء وكل أوصاف القرآن، ثم تترك هذا الكتاب وتذهب خلف الأعمى؟! ولا تتكلموا عن الحضارة، الحضارة عندما تتصل بما يتصل بتعمير الأرض، فهذا شأن كل مُجِدّ، يعني العرب والشرق والغرب أو غيرهم، لهم أن يزرعوا ويحرثوا في الأرض بطريقتهم، هذه الأرض، شأنها مختلف، لكن أكلمكم عن النفس، عن التربية، عن الذي سيلقى الله بنفسه وبمن ربّاه، ماذا سيقول لله؟! أي منهج اتبعت في تربية نفسك وتربية المجتمع؟!

المقصد أننا نقول: "رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- نبيًا" ونرجو من الله أن يكفينا بكتابه وبسنّة نبيّه -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

إذًا في هذه المقدمة أخبر البخاري عن أسباب تجعلنا نعتصم بالكتاب والسنّة، أهمها هذا السبب الذي ذكرناه في البداية: أن الله أكمل الدين وأتمّ النعمة ورضي هذا الدين، فالمؤمن يرضى بما رضي الله، ويفرح بما آتاه الله.

يظهر مباشرة سؤال: " أنا رضيت بالله وأعلم أن كتاب الله كاملٌ، لكن كيف أُخرج من كتاب الله هذا الخير الكثير؟" فأتى مباشرة قال: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) ما معنى جوامع الكلم؟ الكلام القليل الذي يحبس وراءه معانٍ عظيمة، ماذا يفيدنا الجواب؟ سؤالنا كان: كيف أصل في كل مناحي الحياة إلى منهج من الكتاب والسنّة؟ الناس ويقولون: "الكتاب والسنّة نزلا من ١٤٠٠ عام! ما كانت وُجِدت هذه الحضارة وهذه الأمور..." تقول: إن الله لما أنزل كتابه -وهو أعلم بخلقه- جعل صفة كتابه أن فيه جوامع الكلم، وجعل سنة نبيّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكل ما نطق به النبي، فيه جوامع الكلم، يعني كلام قليل، ورائه معانٍ عظيمة، كلّما قلّبت هذه المعاني، وجدت ما تريد، معنى هذا أن ما نحتاجه هو: أن نعطي كلام الله قوانا ونقلبه إلى أن يتبين لنا، يعني كتاب مثل هذا الكتاب، يقول الله في حقه لنبيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1] أي: قول عظيمةٌ معانيه، جليلة أوصافه. هل تظن

(١) المزمل: ٥.

أننا عندما نقرؤه مرة أو مرتين سنُخرج أسراره ومعانيه؟! لا، بل يحتاج منا إلى جهد. وهذا أمر معلوم، أنه كلما كان الكلام أثمن، كان أحبس عن الناس، يعني كلما كان في هذا الكتاب العظيم كلام عظيم يرشدك إلى الحق، يحتاج منك جهد أكبر، لكن نائمًا على فراشه ومستهترًا، يقرأ كأنه يقرأ مطالعة، يُعطى مثل شخص معتكف على الكتاب باذل كل جهده؟! ما يُعطون سواء؛ ولذا القرآن تقرؤه في هذا اليوم وأنت ضعيف الإيمان، لا تفهم منه معاني، تقرؤه غدًا وقد زاد إيمانك، تفهم منه فهومًا عظيمة؛ ولذا قارن بين قراءتك عامة الأيام وقراءتك في رمضان، كيف ترى قراءتك في رمضان؟ تمر على آيات تشعر كأنك أول مرة تقرؤها، والسبب: صفاء القلب، حضور النفس، فهذا الكتاب لا يصح أن نقرأه كأننا نطالعه.

الشاهد: أن هذا الكتاب العظيم، أنزله الله يصلح لكل زمان ومكان، والجاهل هو الذي لا يعلم ما معنى أن النبي بُعث بجوامع الكلم، وأن كتاب الله وسنّة النبي، فيهما كل ما يحتاجه الخلق في كل زمان، لكن يحتاج الأمر إلى العناية والاهتمام وصرف الوقت والجهد لهما.

بهذا اتفقنا على أن الاعتصام بالكتاب والسنّة سببٌ للنجاة، والمعتصم يقول: "رضيت بالله وبكتاب الله" ثم ينظر لكتاب الله على أن كل خير يحتاجه موجودٌ فيه، وكل شر يريد أن يحذره موجودٌ في كتاب الله، على أن الكتاب فيه جوامع الكلم.

كيف يفهم الكتاب ليستخرج أسراره؟ قال البخاري في الباب الثاني: (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾) يعني من أراد أن ينتفع بالكتاب ويُخرج أسرار الكتاب والسنّة، يقتدي بسنن رسول الله. ثم أورد هذه الآية التي فيها وصف لعباد الرحمن، فمن أدعية عباد الرحمن أنهم يقولون: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. ما علاقتها بنا ونحن نريد أن نفهم كتاب الله ونعتصم بسنة رسول الله؟ نقل لنا كلام مجاهد قال: (أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا)، يعني وأنت مقبلٌ على الكتاب، معتصمٌ به، تفكر في نفسك وتفكر فيمن وراءك، قد يكون من وراءك أمة أو أهل بيتك وعائلتك، ماذا تريد لهم؟ تريد أن تنجو وينجون أيضًا، والنجاة ما تكون إلا بالاعتصام، فترجو من الله أن تعتصم، وتدل من وراءك على الاعتصام والنجاة؛ ولذلك عباد الرحمن من دعائهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ المتقين جماعة الناس، المتقين الجماعة الصغيرة، لكن كيف أكون للمتقين إمامًا؟ قال مجاهد: (أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا)، يعني نحن لسنا مقطوعين عمن قبلنا، تصور الصحابة الكرام، من كان قدوتهم الذي كانوا يقتدون به؟ الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، أتى التابعون، هل انقطعوا عن الصحابة؟ لا، فالصحابة كانوا للمتقين إمامًا، الصحابة كانوا ينظرون للنبي من طرف، والتابعون

ينظرون لهم، التابعون بعين ينظرون للنبي، ومن ورائهم ينظرون لهم، يعني لا يوجد من هو منقطع عمن قبله، "أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا". هل سيخلو الطريق؟ أبدًا، أنت تنظر لمن قبلك ومن بعدك ينظر لك، وأنت تكون منتبهًا لمن قبلك، سار يمينًا أو يسارًا، تسير بالضبط مثلما سار؛ لكيلا يضيع من ورائك (أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا)، لا تسمح لأي شخص أن يقطعك تمامًا عن السلف الصالح، ويقول لك فهمه المبنيّ على عوامل عنده! ويقول لك: "هم لديهم عقول ونحن لدينا عقول! ويبدأ بفهم كله فلسفة، بعيدًا عن كلامهم، هل حصل فيه الاقتداء؟ لا، لم يحصل؛ لأن هذا الكتاب وهذه السنّة مطلوب منك أن تفهمها كما فهمها السلف الصالح، فنحن نسير على فهم من سلف حتى لا ينقطع بنا الطريق، ثم أن الذي أنزل الكتاب وأرسل الرسول أعلم بأحوال الخلق، فأنزل عليهم كتابًا فيه جوامع الكلم، يوصلهم إلى الطريق، أهم شيء ألا تنقطع يدك من التمسك بالكتاب ولا تزيغ عينك عنهم، هم أمامك، فأنت سِر خلفهم، بحيث أنك تستدل في كل حركة تفعلها بدليل، ومن صدق في هذا سيجد نفسه محاطًا بالأدلة، مثلًا ينزل المطر، ثم تجد نفسك تكشف جزءًا من بدنك ليتعرض للمطر، وأنت في فعلك هذا مستنٌ بسنّة رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم-، فقد ورد في الحديث أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لمّا

أصابه المطر رفع جزءًا من ثوبه ليصيبه المطر، فسأله الصحابة عن ذلك فقال: «لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى.»[1] إذًا حتى في تصرفاتك البسيطة تكون محاطًا بالأدلة، وهذا أمر يجده من يجتهد ويدعو ربه أن يفتح عليه، لا تتوه أبدًا في أي شيء، كيف تكلم الناس وترد عليهم وتعاملهم؟ كل هذا موجود في كتاب الله، كيف تصلح نفسك، كيف تربي أولادك؟ كل هذا موجود لمن أتى لهذا الميراث العظيم وغرف منه، المشكلة: الإعراض عن الميراث.

ابن عون في الكلام التالي يزيد الأمر بيانًا، ويبين لنا كيف أستطيع أن أفهم الكتاب والسنّة، ابن عون تابعي من التابعين الصغار، وقد وصِف بالتقوى والعلم بالكتاب والسنّة يقول: (ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي، هَذِهِ السنّة أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ) يعني كيف أقتدي بالكتاب والسنّة؟ ماذا أفعل؟ ثلاثة أمور:

الأول: أتعلم السنّة وأسأل عنها.

الثاني: أقرأ القرآن وأتفهّمه.

الثالث: أدَعُ الناس إلا من خير.

(١) أخرجه مسلم (٨٩٨).

وهذه مهمة، ما معناها؟ أي: دع الناس، دعْ كلامهم، دعْ الاشتغال بهم، دعْ مناظرتهم، واشتغل بالكتاب والسنّة؛ لأن ما يشغلك عنهما أنك تتلقف أخبار هذا، وترد على هذا، وتريد أن تُثبِت لهذا...! دعْ عنك الناس، فكر في نفسك وفي طريق النجاة، تمسّك بالكتاب والسنّة، والتمسك لا يأتي بأن تقول: "أنا متمسك!" بل المسألة تحتاج إلى أن تتعلم وتسأل وتدَعُ الناس إلا من خير.

بهذا وصف لنا كيف يكون الاقتداء، وفهمنا أن الكتاب والسنّة فيهما جوامع الكلم، وأنت بحاجة إلى أن تُقبل عليهم بالكلية، وتفهمهما كما فهمهما من قبلك، ولا يأتيك أحد بمعانٍ تُدهشك فتذهب معهم! هل من أحد سابق، قال هذا القول ممن يُرضى عنه؟! معنى ذلك أن العلم هنا موروثٌ، ولسنا مثل غيرنا في الحضارات الأخرى، الحضارات الأخرى تحب أن تنقطع عمن قبلها؛ ليقولوا: "نحن بنينا الحضارة"، لكن بالنسبة لنا، نرى أن الموروث من الكتاب والسنّة وفهم السلف هو الطريق الصحيح للوصول، وهذا معنى ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

إذًا المطلوب منا أن نتعلم الكتاب والسنّة ونسأل عنهما ونجعل هذا من ضروريات حياتنا؛ ولذا من خطتك اليومية أن تدعو في أذكار الصباح: «اللهم! إني أسألُك عِلمًا نافعًا، وعملًا مُتَقَبَّلًا، ورِزْقًا طَيِّبًا.»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٢٥).

أولًا سألت: (عِلمًا نافعًا)، فأين هو الجِد حول العلم النافع؟!

ثانيًا سألت: (وعملًا مُتَقَبَّلًا)، والعمل الصالح مترتبٌ على العلم.

ثالثًا سألت: (ورِزْقًا طَيِّبًا)، والرزق الطيب، إنما طيبته لا تأتي إلا بالعلم، لا تعلم هل الرزق طيبًا أم لا، إلا بالعلم.

فأصبحت الخطة الثلاثية التي تسأل الله أن يعطيك إياها، إنما هي دائرة حول العلم، وهذا يشبه عندما نقول لربنا في الفاتحة ونحن صادقين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، لا يمكن الوصول إلى الصراط المستقيم إلا بالعلم، وهذا كله لمن صدق، من صدق سيجد نفسه لابد أن يلاقي العلم، تصدق في قراءتك للفاتحة وتصدق في الأذكار، الله يرزقك العلم من حيث لا تحتسب، لكن لا تجعل تحصيل العلم أمرًا ثانويًا، يعني تحصّله كما اتفق! إنما جِد واجتهد، والله -عزَّ وجلَّ- ييسّر الأسباب ونسأل الله أن يرزقنا علمًا نافعًا لأن ليس كل علم نافعًا كما اتفقنا.

يأتي الباب الثالث، بعدما اتفقنا في الباب الثاني أنه من المفترض أن أقتدي بسنّة النبي وأتعلم الكتاب والسنّة، فأتى في هذا الباب قال: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾) ما العلاقة؟ العلاقة واضحة. نأتي بالثلاثة أبواب سويًا:

أولًا: مطلوب منا: الاعتصام بالكتاب والسنّة، وستجد فيهما كل ما تريد، واعلم أن فيهما جوامع الكلم.

ثانيًا: لتُخرج جوامع الكلم، المطلوب منك أن تقتدي بالرسول وتتعلّم السنّة وتسأل عنها، وتتعلّم الكتاب وتسأل عنه، وتدَعُ الناس إلا من خير. لكن انتبه أن تتعدى بسؤالك، يعني من الباب الثاني خرجنا بنتيجة: المطلوب أن تتعلم وتسأل، وفي الباب الثالث المطلوب: أن تتعلم وتسأل لكن انتبه، لا تسأل عن شيء لا يعنيك، انتبه أن تتكلف الأسئلة؛ لأننا في المجتمع بين شخصين:

- بين من يعتقد أنه يعلم كل شيء ويخترع معلومات! وهذا كثير بسبب طفرة التعلم، يعني الناس صاروا أنصاف متعلمين، يعتقدون أنفسهم يعلمون ومباشرة يعطونك من التعالم ما يعطونك! وهذا إثمه عظيم خصوصًا إن كان في كلام الله وسنّة رسوله.

- والآخر كل شيء يسأل عنه، حتى الظاهر من المعاني! وحتى الممنوع، إلا ويريد معرفة كل شيء.

فكلا الطرفان مذموم: التعالم والكلام بغير علم، وأيضًا السؤال فيما لا يعني، لكن إجمالًا ما السؤال فيما لا يعني؟ يعني تأتيك أخبارٌ عن الله، مثلا يأتيك في مطلع سورة الحديد قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، هذه الأسماء العظيمة تحل كل الإشكالات التي قد تمر في الذهن من جهة الاعتقاد في الله، عندما يأتي الشيطان ويقول: "ربنا خلقك، فمن خلقه؟!" تجيب: الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، الله هو الآخر الذي ليس بعده شيء، الله هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الله هو الباطن الذي ليس دونه شيء. الباطن معناه: القريب، كيف يكون قرب الله؟ هذا شأن لا تستطيعه بعقلك، لكن المطلوب منك معرفته بأنه باطن بمعنى قريب، أكثر من هذا، عقلك لا يحتمل أن يفهم، والله لم يعلمنا عن ذلك؛ لأننا لا نحتاجه، ونضرب مثلًا لنتصور: الشيء الذي لا يعنينا، مقياسه: هو الذي إن تعلمته، لن أزداد في العلم، ولنتصور المسألة جيدًا، أضرب مثلًا بالأشياء المحسوسة: انظر عندما تشتري جوال فيه إمكانيات لم تكن فيما سبق، كل ما تفعله

أن تتعلم كيف تستعمله فقط، لكنك لا تسأل: "كيف صُنع؟" ولا تسأل: "كيف تحصل فيه العمليات؟" ، نحن حدود تفكيرنا دائمًا فيما نستفيد منه، خلقنا الله لا نسأل إلا عما نستفيد منه عمليًا. إذًا لماذا عندما يأتي السؤال عن الله، يفكر العقل في أبعد من ذلك؟ لوجود الشيطان، لكن في الأصل نحن خلقنا خِلقة، لا نسأل إلا عن المؤكد أنه يفيدنا، وما لا يفيدنا لا نفكر فيه، أما سؤالنا عما لا يعنينا يكون لوجود الشيطان أو لدخول الفلسفات.

إذًا هذه فطرتنا: أن الله خلقنا نسأل عما يعنينا فقط، فأنت عندما تسمع أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، ماذا يعنيك؟ ماذا يقول لعباده؟ «هلْ مِن مُسْتَغْفِرٍ؟ هلْ مِن تائِبٍ؟ هلْ مِن سائِلٍ؟ هلْ مِن داعٍ؟»، هذا ما يعنيك، أن تسأل الله أن يوفقك لذلك، لكن لا تسأل كيف ينزل في الثلث الأخير وأنه يتنقل فيه العالم؟! هذا كله باطل، لماذا؟ لأنه لا يمكن أن تقيس الله بخلقه، كل ما نتكلم عنه من قوانين، الله خلقها فلا تطبقها على الله، إذًا سؤالك عن الكتاب وعن السنّة لا يورثانك الوسوسة أبدًا، بل ما يورث الوسوسة: أن تسأل عما لا يعنيك، وطبيعة الإنسان التي خُلق عليها: أن لا يسأل إلا عما يعنيه، إلى

أن نصل إلى كلام الله وكلام رسوله، في الأصل إن شفانا الله من الأمراض القلبية وأعاذنا من الشيطان، لن نسأل إلا عما ينفعنا، وعندما يدخل الشيطان والوسوسة، الزم ما أمر الله: المطلوب منك قراءة سورة الإخلاص، أن تقول هو الأول والآخر، وأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. والله قدير يدفع الشر عنك.

نأتي للباب الرابع: (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِأَفْعَالِ النَّبِيِّ -صلَّى الله وعليه وسلَّم-) وأريد في هذا الباب أن نعلم أننا ونحن نتعلم سنّة النبي، لابد أن نتعلم القولية منها والفعلية، وحال تعلمنا لأفعال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، سنفرّق بين الأعمال التي يصح لنا متابعة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فيها، والأعمال التي لا يصح فيها متابعة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ففي الباب الرابع وصلنا إلى الأعمال التي يصح أن نتابع النبي فيها، فالنبي في الحديث هناك اتخذ خاتمًا من ذهب يختم به رسائله، ثم نبذه -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأخبر الصحابة بنبذه، فنبذوه كلهم، يعني اتخذ خاتمًا فاتخذوه، نبذه فنبذوه، وهم في هذا ممتثلين لأمر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

نأتي للباب الخامس وهو موضوعنا نبدأ فيه واللقاء القادم نبدأ في مناقشته، قال:

بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾

مطلوب منك الاقتداء بسنن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، وأن تتعلم لكن نبقى دائمًا على حذر من تعدّي ما هو مطلوب، يعني كأننا دائمًا نقول: إننا بين خطرين: بين خطر إهمال الكتاب والسنّة، أو أن نحثّ الناس، فيُقبلوا، فيحصل لهم التعمق والتنازع والغلو.

فهنا قال: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ) أي: التشدد.

(وَالتَّنَازُعِ) بمعنى: أن يقع اختلاف في حكم ولم يصح فيه دليل، فيحول الناس هذا الموضوع إلى نزاع، فيتفرقوا على أساسه.

قال: (وَالْغُلُوِّ) وهو تجاوز الحد سواء كان في الأقوال أو الأفعال.

قال: (وَالْبِدَعِ) يعني الإتيان بشيء ليس له أصل في الكتاب والسنّة، وهذا العمل نحذر منه لأن أهل الكتاب قبلنا فعلوا هذا الفعل ولذلك استشهد البخاري بقول الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا

﴿عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يعني أهل الكتاب اليهود والنصارى وقع منهم الغلو، النصارى غلو في عيسى -عليه السلام- حتى جعلوه ابن الله -تعالى الله عما يقولون- واليهود غلو في عيسى -عليه السلام- حتى جعلوه ابن زنا! فهذا وهذا يعتبر غلو، وهذا الذي ابتدأنا بالكلام عنه اليوم، إن عدم الاعتصام بالكتاب والسنّة لا بد أن يؤدي إلى الغلو والتطرف، فظاهرة الإلحاد أحد ظواهر الغلو وظاهرة الخروج أحد ظواهر الغلو، والمطلوب: الاعتصام مع الاعتدال.

بقي أن نعلم ما هو الاعتدال؟ والمشكلة تحصل إن قاس الناس الاعتدال على أنفسهم، ستكون مصيبة! لأن من يصلي الفريضة فقط بدون سنن، إن رأى أنك تقوم الليل سيقول: "اعتدل" لأن قيام الليل بالنسبة لحاله غلو! فالاعتدال ليس مقياسه الخلق، بل مقياسه النص؛ ولذا لابد أن نتعلم ما هو الاعتدال، والاعتدال لا يكون بناءً على آرائنا أو ذوقنا، بل هو مبنيٌ على الكتاب والسنّة، وسيتبين لنا.

والسلام عليكم ورحمة الله.

اللقاء العاشر

تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه كما يسّر لنا الاجتماع في هذه البقعة المباركة، أحب أرضٍ إلى الله، أن يجعلنا من أحب الخلق إليه، اللهم آمين.

كنا -بفضل الله- قد استفتحنا في جلسات سابقة في مثل هذا المجلس المبارك، هذا الكتاب المهم وهو كتاب الاعتصام من صحيح البخاري، وقد كنا أشرنا ولا زلنا نشير إلى حفظ ربنا الكريم لهذا الدين، فإن الله -عزَّ وجلَّ- أرسل رسوله -صلَّى الله عليه وسلّم- بالكتاب والحكمة، وتقرأ في القرآن مكررًا أنه أرسل رسوله بالكتاب والحكمة، وإذا قرأت تفسير أهل العلم عن معنى الحكمة، تعرف إنها "السنّة"، فكما أن النبي -صلَّى الله

عليه وسلّم- أُرسل بالكتاب، كذلك أُرسل بالسنّة. ولما حفظ الله -عزَّ وجلَّ- هذا الدين قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

فلم يقل: "إنا نحن نزلنا الكتاب"، إنما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿الذِّكْرَ﴾، ويكون الذكر بذلك يشمل الكتاب والسنّة.

وقد مر معنا ولا زلنا نكرر أن كل طاعنٍ في السنّة، قد نهج منهج الفلاسفة، وابتعد عن منهج السلف الصالح.

وهذا أمر متوقع، خصوصًا مع اختلاط الثقافات، متوقع أن يتجه الناس في تفكيرهم للطعن في السنّة، خصوصًا ونحن بيننا من يطعن في الصحابة أصلًا!

فما داموا طعنوا في الصحابة، فسيتطرق الأمر من الطعن في الصحابة، للطعن في سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

والله -عزَّ وجلَّ- جعل حفظ سنّة نبيّه آية من الآيات، فقد ورد في الحديث -ولا زلنا نكرر هذا الحديث الذي صح-: «لو كان الإيمانُ عند الثُّرَيَّا، لتناولَه رجالٌ من فارسٍ»[2]. قال أهل العلم: "الإيمان يعني العلم"، وتحقيق هذا الحديث، أن من جمع سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- كان أغلبهم من هذه الديار، يعني البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، كانوا

(١) الحجر: ٩.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٧).

كلهم من تلك الديار التي خرج أهلها يبحثون عن العلم، وجمعوه بفضل الله ورحمته. وهذا ليس بعيدًا عن الله، فكما حفظ القرآن فهو -سبحانه وتعالى- قد حفظ السنّة.

إن هذا الكتاب المهم -كتاب صحيح البخاري-، تكمن أهميته في أمرين:

الأمر الأول: في جمعه للأحاديث الصحيحة.

يعني كل ما ورد في البخاري فسنده سند الذهب، كل رجاله معروفون عند البخاري وعند شيوخ البخاري، معروفون كمن ينقض الذهب.

الأمر الثاني المهم جدًا الذي يميزه عن بقية الكتب: كون أنه كتاب فقه.

يعني صاحبه فقيهٌ، عليمٌ، يعلم دلالات الأحاديث، لم يجمع الأحاديث مثلما فعل مسلم فقط جمعًا، وقد أحسن مسلم في جمعه، لكنه زاد على ذلك بأنه جمع الأحاديث تحت كتب وتحت أبواب، وداخل كل باب مجموعة أحاديث.

وهذا الترتيب الفريد لم يسبقه أحد فيه، والذي يقرؤه يعرف معاني اسم الله الفتاح، فقد فتح له من أبواب العلم الشيء العجيب، وبدلًا من أن نحمد الله -عزَّ وجلَّ- على أن آتانا مثل هذا الكتاب، نسمع من يطعن فيه! فهذا من قلة شكر النعم.

ومن بين الكتب التي عقدها البخاري في صحيحه هذا الكتاب المهم، كتاب الاعتصام.

هو بدأ صحيحه بكتاب سماه بدء الوحي، وانتهى صحيحه بكتاب سماه كتاب التوحيد. وفي وسط هذه الأبواب كتب مجموعة أبواب، حينما تقرأ ترتيب الأبواب تفهم أن الرجل فقيهٌ، عنده علمٌ، وقرب الأبواب الأخيرة عقد هذا الكتاب، الذي سماه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة.

وأراد بهذا الباب أن يقول: إن من أراد السير على الطريق المستقيم، فليس له إلا أن يعتصم بكتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

لأنه ورد في الحديث وصفٌ لكتاب الله أنه حبل الله المتين، قال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- : «وهو حَبْلُ اللهِ المَتِينُ»[1] وقال: «فإنَّ هذا القرآنَ سبَبٌ طرَفُه بيدِ اللهِ وطرَفُه بأيديكم فتمسَّكوا به فإنَّكم لنْ تضِلُّوا ولن تهلِكوا بعدَه أبدًا»[2]

معنى ذلك أن من تمسك به نجا، فكأن البخاري يقول: من أراد أن يلقى ربه ناجيًا، فعليه بأن يعتصم بالكتاب والسنّة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢٢).

وهذه التسمية للكتاب لم تأتِ من عنده، إنما كما تعلمون أن الله في كتابه قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[1]، و"حبل الله" المقصود به: الكتاب والسنّة.

ثم لما عقد أبوابه كان هذا كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، وداخل الكتاب هناك مجموعة أبواب، وقد وصلنا في النقاش إلى الباب الخامس.

أول ما بدأ البخاري في هذا الباب، أشار إلى أن هذا الدين كامل، أكمله الله، فمن شكر نعمة الله على الإكمال، اعتصم بالكتاب.

فكأنه يقول: الله أكمل الدين، وأتمّ النعمة، ورضي الإسلام لنا دينًا، فماذا نفعل مع دينه، هل نعرض عنه أو نُقبل عليه؟! كان الجواب: نُقبل عليه، بل ونتمسك به، بل ونعتصم به. يعني الاعتصام كأنه فعل شديد، أشد من التمسك، صاحبه يشعر أن حبلًا مُدّ له من السماء، إذا ترك الحبل، إذا فلت الحبل من يده، وقع في بحر لجّيّ.

إذًا هذا الكتاب وهذه السنّة تمثل الدين، والذي يتمسّك بهما، يتمسّك بالدين، وإذا تركهما، فلا بد أن يقع في بحر الفتن.

ماذا أفعل لأتمسك؟

أولًا: أعتقد كمال الدين، وأفرح بهذا الكمال، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٠٣.

ثانيًا: أنظر لكتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- على أن فيهما جوامع الكلم، وهذا هو الباب الأول عنده، أن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- أخبر أنه أوتي جوامع الكلم، وجوامع الكلم: الكلام القليل الذي وراءه علم كثير، علم غزير.

وانظر للقرآن، وقارنه بكتب الناس، كتب الناس تعتبر كثيرة، أوراقها كثيرة، كلامها كثير، لكن علمها قليل، في مقابل أن هذا الكتاب العظيم الذي نزل من رب العالمين، تكلم به -سبحانه وتعالى-، فيه كل ما تريد من أجل صلاح نفسك ومجتمعك وتربيتك واقتصادك، كل ما تريد موجود في هذا الكتاب. أين أجده؟ أولًا: انظر للكتاب على أن فيه جوامع الكلم، يعني كلام قليل وراءه معانٍ غزيرة؛ ولذا الله -عزَّ وجلَّ- لما أنزل على رسوله الكتاب قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢]، عظيمةٌ معانيه، جليلةٌ أوصافه.

هذا الكتاب العظيم كيف نُقبل عليه من أجل أن نعتصم به؟ قال لك: "هذا الكتاب فيه جوامع الكلم".

كيف أتعامل معه؟ أقتدي بسنن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، أتعلم القرآن وأتعلم السنن، وذكر لنا في كلامه، كلامًا لابن عون -وهو تابعي-

(١) يونس: ٥٨.

(٢) المزمل: ٥.

مهم، قال فيه: (ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السنّة أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ.)

فالاعتصام ليس دعوى، يعني لا يصح لأحد أن يقول: "أنا معتصم بالكتاب والسنّة" ثم كما ناقشنا أمس، يأتي في مسألة التربية ويأخذ نظريات الغرب والشرق، وفي مسائل الاقتصاد يأخذ نظريات الغرب والشرق، وكذلك في مسائل إصلاح النفس وتزكيتها! هذا ليس اعتصامًا، هذا كذب على الله؛ لأن صاحبه حين يريد أن ينفذ شيئًا، عينه لا تنظر إلى كتاب الله وسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، بل عينه تنظر لغير الكتاب والسنّة، ثم بعدما ينظر لغير الكتاب والسنّة، قد يبحث عن آية تشبه الكلام الذي أتى به من هنا ومن هنا، ويلوي عنق النصوص؛ لتنطبق على مسألته! وتراهم يقولون: "نحن في إصلاح النفس صحيح نأتي بالغرب والشرق، لكننا كذلك نأتي بآيات من كتاب الله"! ودائمًا الحجة تكون كلمة عجيبة، ليست في مكانها، يقولون: "الحكمة ضالة المؤمن"! ونحن ما ضلتنا الحكمة، ما ضاعت منا أصلًا، ولو فتحنا كتاب الله سنجد الحكمة التي هي ضالة المؤمن، فابحث عنها في الكتاب والسنّة، إن ضلتك الحكمة، لا تبحث عنها في غير الكتاب والسنّة، إنما ابحث عنها في الكتاب والسنّة؛ لأن كل ما تحتاجه موجود في الكتاب والسنّة.

سنرجع نقول: هذه ليست مجرد دعوى ندعيها، "أن الكتاب عظيم، أن فيه منهج يصلح لكل زمان ومكان" الحقيقة، أين اتجاه الناس للكتاب والسنّة؟ هذا هو المفقود.

فمن أجل ذلك ما يصلح أن نكون مثل المنافقين الذين يقولون بألسنتهم شيئًا، ويعقدون قلوبهم وأعمالهم على شيء آخر، والواقع يشهد على ذلك، فكل برامج تطوير الذات، كل برامج التربية، كلها تجدها أسماء لا تعرف كيف تنطقها! لأنها من أسماء أهل الكفر، والله -عزَّ وجلَّ- في كتابه في سورة مثل سورة الشمس يقسم -سبحانه وتعالى- أحد عشر قسمًا على أي شيء؟ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ هل تبحث عن الإصلاح؟ موجود في كتاب الله إصلاح النفس، كل ما تريده عن إصلاح النفس موجود في كتاب الله، لكن اجعل عينك تبحث في كتاب الله، ولا تشتت عقلك هنا وهناك.

وهذه الشكوى دائمة، ويُشتكى فيها الناس المثقفون، والناس الذي هم قادة للمجتمع؛ نشكو منهم أن كيف تقودون المجتمع بعيدًا عن كتاب الله؟ ومن أراد أن يربي حتى أبناءه فليقرأ في كتاب الله وفي سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- وسيجد مراده، لكن كل القصة أن نكون صادقين مع الله، أننا نريد أن نعتصم بالكتاب والسنّة.

إذًا الأمر الأول: في الكتاب والسنّة جوامع الكلم.

الأمر الثاني: أنك إذا أردت أن تُقبل على الكتاب والسنّة وتفهمهما، لا بد أن تفهمهما كما فهمهما السلف، فلا تفهم الكتاب والسنّة وفق هواك؛ لأن الفلسفة دخلت من هنا، يأتون يعرضون آية من كتاب الله وحديثًا من سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- لكن يفلسفونه في العرض!

إذًا افهم كما فهم السلف الصالح، لماذا؟ لأنهم كانوا أعلم في اللغة، كانوا أقرب للنبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، كانوا أبعد عن الشبهات، كانوا أصفى قلوبًا.

كل هذه الميزات وغيرها، تجعل فهمهم أصح من فهمنا، ونحن نتابعهم؛ ولذلك أورد في بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- آية الفرقان، قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، وأتى بكلام مجاهد، ماذا يعني أن أكون للمتقين إمامًا؟ قال: "أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا".

فلسنا مقطوعي الصلة، أنت لست إمامًا بمعنى أنك تأتي بالعلم من عندك، بل أنت تقتدي بمن قبلك، ويقتدي بك من بعدك. وهذا سهل جدًا عندما نسمع كلمة ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، (الصراط) واضح يعني: الطريق. من الذين سلكوا قبلنا الصراط؟ من دلّنا عليه؟ الرسول -صلَّى الله عليه وسلّم- وصحابته الكرام -رضي الله عنهم-، وسار بعدهم

التابعون، وتابعو التابعين، ونحن نسير كلنا في نفس الطريق، عيننا عليهم ونحن نسير، ومَن ورائنا ينظرون لنا ويسيرون وراءنا.

لكن تخيل أحدًا قطع الطريق وخرج وحده، اخترع طريقًا جديدًا، هو سيصير الإمام فيه، وليس له سابق! وهذا مثل كل الفرق، كل الفرق التي افترقت عن السنّة ماذا فعلت؟ كانت سائرة في الطريق، ثم خرجت يمنة أو يسرة، وصار رئيسها إمامًا، يُقتدى به، وتركوا أن يكون النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- إمامهم؛ ولذا انتبهوا لهذا الشيء جيدًا، أهل السنّة والجماعة ليس لهم اسم إلا أهل السنّة والجماعة، ما لهم اسم آخر، لكن أهل الفرق أسماءهم، على حسب من شقّ بهم الطريق، الذي ابتدأهم في شقّ الطريق يسمون به، لكن أهل السنّة والجماعة وراء النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- وصحابته الكرام ومع جماعته، وهؤلاء يُرجى لهم يوم القيامة أن يشربوا من حوضه؛ لأنه كما هو معلوم أن النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- يعرف أمته من العلامات، قال: «أَنْتُمُ الغُرُّ المُحَجَّلُونَ يَومَ القِيامَةِ مِن إسْباغِ الوُضُوءِ»[1]، إلى أن يقتربوا من حوض النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- فتردهم الملائكة، وتقول للنبي: "إنك لا تدْري ما أحدَثوا بعدكَ"[2]. يعني تركوا الطريق وانشقوا بطريق جديد؛ فلابد أن نعرف أن

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٦).

هؤلاء لما انشقوا، انشقوا ومعهم آية، انشقوا ومعهم حديث، لكن فهموه كما أرادوا!

إذًا نحن حينما نعتصم بالكتاب والسنّة، نتمسك بالكتاب والسنّة على فهم من سلفنا، ونحن إذا كنا نريد أن نكون أئمة لأبنائنا، لأهل حيّنا، لمدرستنا، فعلينا أن نكون نحن بأنفسنا نقتدي بمن قبلنا.

كنا انتهينا من الباب الثاني، (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم-.)

لما تعلمنا في الباب الثاني أن نقتدي، وعلمنا أن المطلوب منّا أن نتعلم الكتاب والسنّة ونسأل عنهما، أتى في الباب الثالث كأنه يحذرنا: صحيح أن المطلوب منك أن تقرأ الكتاب والسنّة وتتعلمها وتسأل عما أشكل عليك، لكن انتبه لا تتعدى في السؤال، لا تتكلف السؤال، لا تسأل عما لا يعنيك، فالمعتصم بالكتاب والسنّة يعرف الأدب في السؤال، يعرف حدوده في السؤال، لا يسأل عن كيفيات الصفات، يتعلم صفات الله، يعرف عن الله أنه استوى على العرش -سبحانه وتعالى-، يعرف أنه العلي العظيم، يعرف أنه -سبحانه وتعالى- ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، يعرف كل الأخبار ويؤمن بها ويصدقها ويتيقن ويعامل الله بها، لكن لا يسأل: (كيف؟) لأن (كيف؟) لا تصلح مع من ليس كمثله شيء، فالذي ليس كمثله شيء -سبحانه وتعالى- لا يصلح معه أن نسأل

كيف؟ أنت تسأل: (كيف؟) عندما تستطيع إدراك (كيف؟) لكن (كيف؟) في حق صفات الله، هذا أمر خارج عن قدراتنا، وهذا الكلام فيه نقاش طويل، لكن المهم: اسأل عما يزيدك إيمانًا، لا تسأل في الدين، لا في الكتاب ولا في السنّة عما يكون مبدؤه الشك، أو التحدي أو تكون تتخاصم مع أحد وتريد أن تثبت رأيك فتسأل أسئلة، هذه الأسئلة فيها تكلف، ولا يفتح للسائل بمجيب كما ينبغي، بل يُغلق عليه الفهم.

الشاهد أن المطلوب منّا أن نتعلم ونسأل، لكن فيما يزيدنا إيمانًا.

ثم أتى بعد ذلك قال (بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِأَفْعَالِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم-).

معناه: أنه مطلوب منّا أن نقتدي عمومًا بالنبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، ونقتدي بأفعاله خصوصًا، لكن الأفعال فيها تفصيل لذلك أفردها، ليست كل أفعال النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- مطلوب الاقتداء بها، ففي نفس الباب أورد حديث النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- :

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: اتَّخَذَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم- خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ" فَنَبَذَهُ وَقَالَ: "إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا"، فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ.

رأوه فعل؛ ففعلوا مثله، ثم نبذه -صلَّى الله عليه وسلّم- لتحريم الذهب على الرجال؛ فنبذوه، هنا الاقتداء صحيح، لكن توجد مواطن الاقتداء بفعل النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- فيها ما يكون صحيحًا، ستتبين الآن ونحن نتناقش في الباب القادم.

سنقرأ الباب الخامس جملة جملة؛ لأنه سيضيف على مسألة الاعتصام شيئًا مهمًا. سنقرأ الآن اسم الباب، وبعد ذلك نناقش الاسم، ثم نقرأ الأحاديث:

بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

← هذا الباب ننظر إلى اسمه (بَابُ مَا يُكْرَهُ)

وحين تسمع (مَا يُكْرَهُ) في كلام السلف -يعني من البخاري ومن في زمانه-، اعلم أن (يُكْرَهُ) بمعنى: يُحرّم. فالكراهية هنا بمعنى التحريم، مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[1] بمعنى حرام.

(بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ): التعمق بمعنى: التشدد.

(١) الإسراء: ٣٨.

(وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ) بمعنى: التجادل فيه عند الاختلاف. والاختلاف شيء طبيعي، لكن ما هو الممنوع؟ أن يحصل تنازع حين يحصل خلاف وبعد ذلك تُصبح عداوة.

(وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ) الغلو بمعنى: تجاوز الحد والغلو فوق التعمق.

(وَالْبِدَعِ) ما لم يكن له أصل في الكتاب والسنّة.

إذًا كم شيء محرم ذكره في اسم الباب؟ أربعة أشياء: التعمق، التنازع، الغلو، البدع. ثم أورد قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، من المقصود بأهل الكتاب؟ في الأصل اليهود والنصارى، نهاهم عن أي شيء؟ ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بمعنى: لا يقع منكم تجاوز الحد والغلو.

في مَن غلوا أهل الكتاب؟ الأصل أنهم غلوا في حق عيسى -عليه السلام-، فاليهود قالوا: "إنه ابن زنا" والنصارى قالوا: "إنه ابن الله"، وفعل كلا الطرفين يعتبر غلو.

إذًا سنقرأ في الباب أدلة تدل على كراهية التعمق، أدلة تدل على كراهية التنازع، أدلة تدل على كراهية الغلو، وكراهية البدع، نقرأ الأحاديث وبعد ذلك نرى علاقتها بكتاب الاعتصام.

• حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "لَا تُوَاصِلُوا ." قَالُوا :إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: "إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي

رَبِّي وَيَسْقِينِي" فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ، قَالَ: فَوَاصَلَ بِهِمُ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم- يَوْمَيْنِ أَوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ رَأَوُا الْهِلَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم-: "لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ" كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ.

← وهذا الحديث فيه قصة تدل على معاملة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- لأصحابه في مسألة زاد فيها طلبهم عما أُمروا فيه، وهذا يصلح أن نفهم به أيضًا الباب السابق لأن الباب السابق اتفقنا أننا في الأصل نقتدي بالنبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ، هل في كل الأفعال؟ لا، بعض الأفعال نُنهى عن الاقتداء به.

سنقرأ جملة جملة:

قال النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-: (لَا تُوَاصِلُوا) المقصود: لا تواصلوا في الصيام، هم رأوا النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- واصل آخر الشهر، بلغ الناس أن النبي واصل في الصيام -واصل بمعنى أنه لا يفطر في الغروب ولا عند السحور، إنما يواصل اليوم واليومين- أرادوا أن يقتدوا به -صلَّى الله عليه وسلّم- ، فكان رد النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- : (لَا تُوَاصِلُوا) في الصيام.

(قَالُوا :إِنَّكَ تُوَاصِلُ):يعني قالوا نريد أن نفعل مثل فعلك.

رد عليهم النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- فقال: (إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي): يعني يقويه الله على الطاعة، ومناجاة الله

كافية لزيادة القوة، وهذا الذي يذكره النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- في حق نفسه، يكون في آخر الزمان في وقت الدجال في حق الناس المؤمنين، وقد ورد في حديث أسماء -رضي الله عنها- إنها سمعت النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- يُخبر عن زمن الدجال، قال: « إنَّ بين يديه ثلاثَ سنين: سنةٌ تُمسك السماءُ فيها ثلثَ قطرَها، والأرضُ ثلثَ نباتِها، والثانيةُ تمسكُ السماءُ ثُلثي قَطرَها، والأرضُ ثلثي نباتِها، والثالثةُ تُمسك السماءُ قَطرَها كلَّه، والأرضُ نباتَها كلَّه، فلا يبقى ذاتُ ظلفٍ، ولا ذاتُ ضرسٍ من البهائمِ؛ إلا هلكتْ» فسألت أسماء -رضي الله عنها- النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- عما يُعيّش الناس حينما يذهب الطعام والشراب، فقال -صلَّى الله عليه وسلّم-: «يجزيهم ما يجزي أهلَ السماءِ من التسبيحِ والتقديسِ»[1]، فهذا في آخر الزمان يكون في حق الناس مثل الغذاء، وفي حق النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- وقت حياته كان يبات ويطعمه ربه ويسقيه، بعض الشراح قالوا: "يطعمه ويسقيه من الجنة"، لكن الصحيح أن الإطعام والسقيا هنا بلازمها، أي: يعطيه الله القوة بسبب الذكر؛ لذلك قال لهم: (إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي).

(١) أخرجه أحمد في ((المسند)) (٦/٤٥٥).

(فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ) هل ما انتهوا عن الوصال عنادًا؟ لا، بل ظنوا أن النهي ليس للتحريم، إنما كأنه رحمة بهم فقط منعهم من الوصال، وإلا فهو في الأصل جائز.

لكن انظر بعد ذلك قال: (فَوَاصَلَ بِهِمُ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم- يَوْمَيْنِ أَوْ لَيْلَتَيْنِ): يعني كان هذا آخر الشهر، فجاءت الليلة الأولى كاملة والليلة الثانية كاملة.

(ثُمَّ رَأَوُا الْهِلَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم-: لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ.) أي: لَبقيت مواصلًا ولواصلتم فوجدتم أثر مخالفتكم لأمري.

يقول الراوي -أبو هريرة- : (كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ): أي: كأنه يعاقبهم لأنهم أبو أن ينتهوا.

الشاهد بالنسبة لنا: أن الاعتصام بالكتاب والسنّة طريقة صاحبه: أنه لا يتجاوز الحد الذي أُمر به؛ لأن تجاوز الحد الذي أُمر به يُنبئ عن أمور، يدل على أمور.

أي أن المعتصم لا يتعدى، لا يتعدى بالغلو، لا يتعدى بالتعمق، لا يتعدى بالبدع، لا يتعدى ما أُمر به. لماذا؟ لأن الذي يتعدى كأنه يقول: "أنا ما أكتفي بما هو موجود في الكتاب والسنّة"، وهذا ليس طريق المعتصم بالكتاب والسنّة، المعتصم يلزم ما قاله الله وقاله رسوله، حينما يُنهى عن شيء، ما يقول: "أنا سأزيد لأتقرب!" انظروا هذا فعل كان يفعله

النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، ونهاهم عنه، وهم أصروا، فقال لهم: (لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ.) يعني غضبان عليهم، (كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ): إشارة إلى أنه ليس المقصود في الشرع الزيادة، الزائد ليس خيرًا من الناقص، إنما الناقص والزائد كلاهما سواء، بل ستجد أن الزائد خطيرٌ جدًا؛ لأن الإنسان حينما يزيد عما جاء به النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ويتقرب به إلى الله، كأنه يقول: "القرآن والسنّة لا يكفياني"، كأنه يقول: "هناك أبواب للقربة لم يخبرنا بها النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-!"، كأنه يرى نفسه أحسن من النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- وأحسن من العبّاد الذين استقاموا على دين الله -عزَّ وجلَّ-! فأول ما يرى نفسه متقدمًا على الشرع، هذا يعني أنه قد تخطّفه الشيطان؛ لأن الشيطان يسير مع الناس على الطرفين، كيف يفسدهم؟

- إما يكسلهم عن الطاعات.
- إما يجعل فيهم شهوة للزيادة عن المأمور.

والناس عندما يرون أنفسهم فيهم شهوة للزيادة عن المأمور، يشعرون كأن هذا دليلٌ على زيادة الإيمان، يشعرون كأنه دليلٌ وهو ليس كذلك، إنما هذه أحد مزالق الشيطان، يعني الشيطان كما يُكسل الإنسان عن الطاعة، كذلك يجعله ينشرح لطاعة لم تشرع، فكلا الطرفان من فعل الشيطان، والذي يعتصم بالكتاب والسنّة عليه أن يتمسّك بما أُمر به،

الباب الذي فُتح فيه الزيادة يزيد، الباب الذي أُغلقت فيه الزيادة يكتفي. مثلًا قال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- : «مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ، ولَهُ الحمدُ، يُحْيي ويُميتُ، وَهوَ علَى كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ في يومٍ مائةَ مرَّةٍ كانَ لَهُ عَدلُ عشرَ رقابٍ، وَكُتِبت لَهُ مائةُ حسنةٍ، ومُحِيَت عنهُ مائةُ سيِّئةٍ، وَكانت لَهُ حِرزًا منَ الشَّيطانِ يومَهُ ذلِكَ، حتَّى يُمْسيَ، ولَم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مِمَّا جاءَ بِهِ؛ إلَّا أحدٌ عمِلَ أكْثرَ من ذلِكَ»[1]

فهنا يصح لك أن تزيد، لكن بعد الصلاة، قال النبي: «مَن سَبَّحَ اللَّهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وحَمِدَ اللَّهَ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ، وقالَ: تَمامَ المِئَةِ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطاياهُ وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ.»[2] المشروع بعد الصلاة أن تلزم العدد، إذا وقعت في خطأ، لا بأس صحح خطأك، لكن ما يكون أصل عملك في يومك وليلتك، أنك واقع في خطأ، ثم تجد نفسك تسبح أربعين وتقول: "زيادة ما فيها مشكلة، وهذا ذكر الله!"، نقول: لا بأس، اذكر الثلاثة وثلاثين وانتهي منها، والتزم بالسنّة، ثم اذكر بإطلاق ما تريد، لكن في الثلاثة وثلاثين لا تزِد، كُن على سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، كما أمرك، ثم في المطلق

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٧).

لا بأس اذكر كما تريد، قال رجل للنبي: "إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كثرت علينا فمرني بأمرٍ أتشبَّثُ بِه" فقالَ: «لا يزالُ لسانُك رطبًا بذِكرِ اللَّهِ -عزَّ وجلَّ-»[1] لكن لا تتعدى سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

إذًا الذي ورد مطلقًا، اجعله مطلقًا، والذي ورد مقيدًا، اجعله مقيدًا، لا تخلط الاثنين معًا، تعلّم الأمور بأدلتها، ومسألة مثل مسألة ذكر الله، ورد في مواطن كثيرة الإباحة لها، في أي وقت تذكر الله، وأنت نائمًا وأنت جالسًا، كما أردت، لكن فرّق بين الذكر المطلق والمقيد، فلا يأتِ أحد في الطواف يطوف سبعًا، ثم يقول: "لا مانع من أن أطوف ثمانية!" ما يصح، لكن يصح لك أن تطوف سبعًا ثم تطوف سبعًا ثم تطوف سبعًا، كما تريد، لكن ابقَ على سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، لا تزِد من عندك، لا يأتِ أحد في رمي الجمرات في الحج، يرمي سبعًا ويزيد واحدة احتياطًا! هذا وسواس، هذا الاحتياط وسواس، هل ستحتاط في كل أمورك، بهذه الطريقة؟!

المقصد من النقاش: أن نتابع سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- بلا زيادة ولا نقصان، وحينما يكون الأمر واسعًا، اجعله واسعًا، وحينما يكون الأمر محددًا، التزم بحدّه، مثلا قيام الليل مثنى مثنى، صلِّ ما أردت، لكن أهم شيء، أن تصلي مثنى مثنى، الأمر لك من أن تصلي

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٩).

الثمانية المطابقة لسنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، إلى أن تصلي الواحد وعشرين أو الثلاثة وعشرين التي كان عليها عمر -رضي الله عنه- إلى أن تصلي ما ذكره الإمام مالك الذي هو أكثر من ذلك، فلا بأس، المهم أن تبقى على الشرط الذي هو: مثنى مثنى؛ هذا لأن الأمر مفتوحًا، المفتوح اتركه مفتوحًا، والذي ورد محددًا اتركه محددًا، فليس لأحد أن يقترح ويقول: "نزيد ركعة في الظهر أو العصر!" لماذا؟ لأن هذا قد ورد بهذه الصفة، فيبقى على هذه الصفة، والأمر الذي فيه سعة، افعل فيه ما تريد. القاعدة تقول: افعل كما فعل النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ولا تتعدى؛ لأن تعديك معناه أنك تقول إنك أحسن مما أتى به الشرع، تقول إنك أفضل مَن عبد الله! كأنك تتعدى، وهذه ليست صفة للمعتصم بالكتاب والسنّة، إنما المعتصم متمسكٌ بالكتاب والسنّة. ننتقل للحديث التالي:

• حدثنا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ :خَطَبَنَا عَلِيٌّ عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ آجُرٍّ وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، فَنَشَرَهَا فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ، وَإِذَا فِيهَا : "الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا" ، وَإِذَا فِيهِ:

" ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا"، وَإِذَا فِيهَا: "مَنْ وَالَى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا."

← هذا الحديث سنجد دلالته على هذا الباب من جهتين، لاحظوا الباب هو (مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ) والحديث روي عن علي رضي الله عنه.

(خَطَبَنَا عَلِيٌّ عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ آجُرٍّ) آجر، هذه كلمة فارسية معناها: الطوب المشوي.

(وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ) يعني المنبر عليه سيف في صحيفة معلقة.

(فَقَالَ -علي- وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ): نبدأ بالفائدة الأولى:

كأن هذا الحديث ردًا على أي أحد يقول إن علي -رضي الله عنه- خُصّ بعلم لم يأتِ للأمة، فإنه يقسم بالله (وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ) مثله مثل المسلمين، ما خصه النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- بعلم خاص، ومن ثّم الذي يأتي يقول إن علي -رضي الله عنه- عنده قرآن

غير قرآن المسلمين وعنده آيات ليست موجودة في كتاب المسلمين! إلى آخر ما تسمعه، هذا كله كذب بهذه الرواية وبغيرها من الروايات.

نشر الصحيفة الآن، قال: (فَنَشَرَهَا) يعني فتحها.

(فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ) يعني بعض الأحكام منها أسنان الإبل يعني المقصود سن الإبل الذي في الديّات في العمد والخطأ وشبه العمد، فكأن كُتب في هذه الصحيفة أنه إذا قُتل عمدًا هذه عدد الإبل وهذه سنها، وإذا قُتل شبه عمد وهكذا، يعني أحكام تتصل بالديّات.

الفائدة الثانية:

(وَإِذَا فِيهَا: "الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)

(الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا) هذه حدود حرمة المدينة.

(فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا) هنا شاهد أيضًا على الباب، الباب يقول: "لا تتعمق، لا تتنازع، لا تغلو، لا تقع في بدعة.

فالنبي -صلَّى الله عليه وسلّم- يقول: (فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا -يعني فرضًا- وَلَا عَدْلًا -يعني نافلة-)، إذا الشاهد: أن من أحدث حدثًا، بمعنى: ابتدع بدعة، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، وهذا كله تغليظ في حق المبتدع، لماذا كل هذا التغليظ؟ لأن

الذي يُحدث في الدين يتهم حكمة الله، يتهم إبلاغ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلّم- الرسالة، أما في حكمة الله فكأنه يقول: "هناك طريق يوصل لله ما عرفناه!" يأتي هو يخترعه، أما في إبلاغ سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، فكأنه يتهم النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- أنه قصّر في إبلاغ الدين، فكأنه يقول: "هناك طريق يوصل إلى الله وإلى الأجور والنبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ما أرشدنا!".

إذا معنى ذلك أن الشريعة لابد أن تُعامل معاملة من يعلم أنها كاملة، معاملة من يعرف أنها وُصفت بكل أبعادها، بمعنى عندما يأتي الأمر الشرعي، إن كان هذا الأمر الشرعي يحتاج في تحديده إلى زمان، فالشريعة أتت بالزمان، إذا كان يحتاج في تحديده إلى مكان، فالشريعة أتت بالمكان، إذا كان يحتاج في تحديده إلى عدد، فالشريعة أتت بالعدد، إلى صفة، فالشريعة أتت بالصفة. فكل أمر أَمر الله به يحتاج إلى هذه الأمور، الله -عزَّ وجلَّ- علّمنا هذه الأمور، مثال: الصلاة، الصلاة لمّا شرعها الله، ورد لها مكان، لها زمان، لها عدد، لها صفة، لها مقصد، كله أتى بالتفصيل يعني ورد في حكم صلاة الظهر وقتها، مكانها، يكون المصلي طاهرًا مستقبلًا القبلة، أربع ركعات، تفعل كذا في الركوع والسجود، ومثلها الحج، والصيام، كل التفاصيل التي تحتاجها في أي أمر، أتت الشريعة بها، لكن عندما تأتي البدع، الإحداث في الدين، يأتي على نوعين:

النوع الأول: نوع ليس موجودًا أصلًا في الشريعة، ليس أمرًا قد شُرع، بمعنى يأتي أحد يقول: "نحن نحب النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ونحب دينه ونريد أن نخصص يومًا لذكره، فيأتون يقولون: "نحتفل بمولده!" نقول: هذا لا يمكن أن تعتبره شيئًا خارجًا عن الدين، أي شيء يتصل بالنبي هذا في الدين، يعني لا تقل: "هذه مناسبة اجتماعية!" هذه ليست مناسبة اجتماعية؛ لأنها تتصل بالدين لأن النبي فيها، هذا الاحتفال هل تريد به أن تتقرب إلى الله أو إلى غيره؟! لا يمكن أن يكون شيئًا في الدين إلا وتريد أن تتقرب به إلى الله، فلو كان قربة، لأمرنا به النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- وأمرنا به الله، كلمة واحدة: ما دمنا لم نُؤمر به، إذًا هذا إحداث في الدين وإحداث أصلي! يعني لم يكن سابقًا موجودًا، بل أحدثوه مرة واحدة، وهم في هذا يشابهون ما فعل النصارى، النصارى ماذا يفعلون مع المسيح، إلا يحتفلون بمولده، فهذه كأنها نقلة ثقافية من الترجمة ومن العلاقة مع اليونان وغيرها.

أو تأتي البدع بصورة أخرى، النوع الثاني: تكون الطاعة موجودة، مأمورٌ بها، لكن يضيف عليها أشياء لم ترد في الشريعة، يعني يأتي إلى طاعات قد شُرعت، حُدّد لها زمان، حُدّد لها المكان، هو ماذا يفعل؟ يأتي بصفة عليها، مثلًا أذكار بعد الصلاة مشروعٌ عددها، وقتها، صفتها أنك تقولها بنفسك، وقد ورد في الحديث أن عائشة -رضي الله عنها- كانت

تقول إنها تعلم وقت انصرافهم بارتفاع أصواتهم في الذكر، كل واحد يذكر، فترتفع أصواتهم، فتعرف أن الصلاة انتهت، لكن حينما يأتي أحد ويجعل الذكر بعد الصلاة جماعيًا، أين الخطأ؟ الذكر أصلًا مشروع، ووقته صحيح، أين الخطأ؟ في الصفة.

إذا الإحداث نوعان:

- إما إحداث شيء يعني اختراع شيء لم يرد أبدًا.
- أو اختراع شيء مضاف للشريعة.

مثلا نأتي إلى شهر رجب، رجب من الأشهر الحرم التي عظّمها الله، وهي معلومة، أربعة: رجب، ذو القعدة وذو الحجة ومحرم. هذه الأربعة أشهر محرّمة عظيمة عند الله، معظمٌ فيها العبادة، يرتب على المنكرات فيها والأخطاء آثام أعظم من غيرها، إلى آخر أحكامها، عندما تأتي إلى رجب أو إلى غيره من الشهور الحرم، مطلوب منك أن تعتقد أنها عظيمة، لكن لم يأتِ شرع أبدًا بتخصيصها بصيام ولا تخصيصها بعمرة، ولا غيرهم، فيأتي أحد ويجعل رجبًا شهرًا للعمرة، اعتمادًا على كونه من الأشهر الحرم! نقول: نعم، هو شهر حرام والطاعات فيه عظيمة والمعاصي فيه خطيرة، لكن تخصيصه بعمرة يعتبر بدعة.

وهذا كله خطير يعني يشبه بعضه في الخطر، لكن الاختراع الذي ليس فيه إضافة للدين، أخطر من الإضافي، والإضافي خطير أيضًا، وكل هذا

يوصلنا في النهاية إلى أن تذهب معالم السنّة وتبقى معالم البدعة، ومن أمثلة ذلك أيضًا: قراءة القرآن في العزاء، الآن قراءة القرآن مشروعة، ومن عنده مُصاب، فمن أسباب تسليته أن يجلس يقرأ القرآن، لكن توصيف هذا الذي يُرى في بعض بلاد المسلمين أنه وقت العزاء يُقرأ القرآن، هذا يعتبر بدعة، إلى أن غلبت هذه البدعة على السنّة، إلى أن ظهر في مواطن كثيرة أن القرآن لا يُقرأ إلا في العزاء!

إذًا البدعة تسير ببطء، إلى أن تمحو السنّة، إلى درجة أن تصبح البدعة بدلًا عن السنّة! وهذا خطر البدعة أنها تمحو السنّة فيصبح الناس لا يعلمون هل هي بدعة أم سنّة! فلا تُعرف سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- في العمل.

ومن الأمثلة اليسيرة التي نتداولها دائمًا في الطواف والسعي، أن الناس عندما يسعون، فالسنّة أن المقبل من المطاف إلى السعي، بعدما يطوف ويصلي ركعتين، يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾[1] ثم يقول: "أبدأ بما بدأ الله به" يعني أبدأ بالصفا، ويستقبل القبلة ويرفع يديه كهيئة الدعاء، ويقول الدعاء المعلوم الذي يبدأ فيه بقوله: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، الآن مع وجود الكتب التي هي غير محققة أصبح الناس يقرؤون الآية كلما وصلوا الصفا أو وصلوا

(١) البقرة: ١٥٨.

المروة! والصحيح أنها قُرأت مرة واحدة، وهذا أصح الأقوال، يعني كأنك تقرر ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وتقرر في نفسك إن الله شاكرٌ عليمٌ، وتقول: "أبدأ بما بدأ الله"، يعني كأنك تكلم نفسك عن هذا، وهذا يشبه حالك حينما تخرج من الطواف وتريد أن تصلي خلف مقام ابراهيم وتقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] هذا بالضبط مثله، يعني تقول لنفسك: "اتخذي منه مُصلى" وتقف وتقول: "أنا الآن أمتثل للأمر"، ومثله حينما تذهب إلى الصفا، لكن مع انتشار سماع ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ في السعي، ماذا اختفى؟ اختفى شيء مهم وهو وقت إجابة الدعاء على الصفا وعلى المروة؛ لأن من أعظم أوقات إجابة الدعاء في العمرة: موقفك على الصفا وأنت مستقبل القبلة، وموقفك على المروة وأنت مستقبل القبلة، ثم ترجع مرة ثانية على الصفا يصير مرة ثانية، ثم ثالثة، رابعة، خامسة، سادسة، سابعة، سبعة مواطن تدعو فيها الله -عزَّ وجَّل-، وهذه المواطن من مواطن إجابة الدعاء، فماذا حصل؟ ذهبت السنّة بسبب انتشار البدعة! فلابد أن نعرف أننا نخسر شيئًا عظيمًا، عندما تنتشر البدعة، تختفي السنّة ونخسر كثيرًا من العقائد والأعمال المقربة إلى الله، والسبب: عدم تحرير سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-.

---

(١) البقرة: ١٢٥.

هذا الأمر مؤذٍ جدًا، وهذا مثال بسيط جدًا من الأمثلة الكثيرة التي أزالت فيها البدعة السنّة، المهم أن تعلموا خطورة البدعة، المقصد: أن تعلّمنا من الطواف والسعي من أين أتينا به؟ من الميراث! رأينا الناس يطوفون ويسعون، فطفنا وسعينا مثلهم! مع أن الكتب التي تعلّم النسك كثيرة جدًا، فلا بد أن نتعلم. ونحن وصلنا الآن لدرجة من الثقافة تجعلنا نعرف هل هذه المصادر صحيحة، أو غير صحيحة، هذا الكلام كان يُقبل قبل عشرين سنّة لأن الناس كانوا لا يستطيعون معرفة هل هذه الكتب صحيحة أو غير صحيحة، لكن اليوم هذا الكلام لا يُقبل، الآن مقصدنا اهتموا بالسنّة واتركوا البدع.

الفائدة الثالثة من الحديث، قال: (ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا).

(ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ) هذه الجملة في غاية الأهمية متصلة بالتعمق والتنازع والغلو، معناها، لو دخل على المسلمين شخص ليس منهم، كتابي ذميّ، نسميه ذمّي لأنه دخل تحت ذمة أحد الأشخاص، تحت ذمته يعني في حمايته، الآن في الواقع، يعني دخل في حماية الدولة، دخل تحت حمايتها المفترض، أن (يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ) كلهم يحمونه، لا يعتدي أحد عليه، وإذا اعتدى عليه، فكأنه يعتدي على الشخص الحامي.

(فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا) يعني المسلم أدخل هذا الذمي في حمايته، وأخفره أحد، اعتدى عليه، ماذا عليه؟

قال: (فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا) نفهم بذلك أن كل ما يتصل بالإرهاب والقتل في داخل الدول، هذا كله يُخالف سنّة النبي -صلَّى الله عليه وسلّم-، وهو نوع من أنواع التعمق والتنازع في الدين، نوع من أنواع التعمق والتعدي؛ لأن مَن دخل إلى ديار المسلمين دخل في ذمتهم، وذمتهم يسعى بها أدناهم، فإذا أخفر أحد ذمة ولي الأمر، أو ذمة أحد المسلمين، فهذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلًا، ما السبب الذي وصلوا به إلى هذا؟ السبب: أنهم تعمقوا، تنازعوا، وقعوا في الغلو، إلى أن وصلوا إلى البدعة، وهؤلاء يقول النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- في حقهم: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مع صَلَاتِهِمْ، وصِيَامَكُمْ مع صِيَامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[1]، هنا الأزمة: أنهم يقرؤون القرآن ويعبدون الله، لكن حينما يقرؤون القرآن ما يفهمون! (لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ) قال أهل العلم: "لا يدخل إلى قلوبهم فيؤمنوا، ولا يصعد إلى ربهم فيؤجروا!".

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٨).

الوصف التالي هو الذي يدل على المصيبة: (يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)، يعني كأنه رُمي بسهم في صيدٍ وهذا السهم دخل في الصيد وخرج من الجهة الأخرى! إذا أمسكت السهم تقلبه، لا تجد فيه أي أثر من دخوله في الصيد! لا يوجد أثر دم ولا غيره، معنى ذلك أن هؤلاء كانوا في الدين يصلون، يصومون، يقرؤون القرآن، ثم خرجوا من الدين حتى لم يبقَ عليهم أي أثر من آثار الدين! هذا كله بسبب: التعمق، التنازع، الغلو في الدين.

إذا معنى ذلك أن الاعتصام معناه: التمسك بما ورد في الكتاب والسنّة، ما نترك لأنفسنا الخيالات، ما نترك لأنفسنا أن تشطّ بالبدع، لا نرى أنفسنا أننا نفهم أكثر مما فهم السلف الصالح والصحابة! فنُسلّم ديننا لمجرد الثائرات النفسية! يعني كثير يكونون أصلًا في أنفسهم غير أسوياء، يكادون يكونون مرضى نفسيين! يُخرجون أمراضهم من منفذ الغلو في الدين، بمعنى أنك لا بد أن تلاحظ أنه إن كان في شخصيتك ميل إلى الغلو دائمًا عليك أن تردّها، مثل الذي يلاحظ في شخصيته ميولًا إلى الوسواس، ماذا يفعل؟ يردّه، إذا ما ردّه، يحصل التعمق وهو يعتقد أنه سائرٌ على دين الله، أسأل الله أن يسلّمنا من كل شر!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته